صَلواتٌ للحُبّ

(رواية)

تأليف

برهان محمد سيفو

تدقيق نحوي: الشاعر حسين الحموي

(1)

كلّ شيء كان هادئاً في تلك البريَّة المُترامية الأطراف، فالوقت صيف، والسّماء صحو، والشّمس في عزِّ الظّهيرة تُرسل أشعتها الحادة إلى المزروعات التي ارتوت بالماء فتخضلت وريقاتها، وبدت لناظرها، من بعيد، بساطاً أخضر، يمتد على مساحة تجاوزت عشرة دونمات.

والطبيعة هادئة ساكنة إلا من صَوت مَجرفة تقطع الصمت من حين إلى آخر، والمياه صافيّة رقراقة، تنساب في ساقيَّة ترابيَّة، أُعدَّت لري المَوسم، حيث تبدو على جانبيها، وفي القاع منها، الحصى الملونة، بحوافها المُتكسرة حيناً، والمُدورة أحياناً، رائعة التكوين، وهي تعكسُ أشعة الشَّمس المتلألئة، بعشوائية تَخلب اللّب، وتأسر الخيال.

والعصافير تُزقزق من بعيد، وهي تحط على تلك السّاقية، لتحمل الماء في مناقيرها البُرتقاليَّة، المائلة إلى السُمرةِ، وتطير إلى وكناتها، حيث أشجار السرو الباسقة، تُحيط بالبستان من جهاتهِ الأربع.

والفراشات المُلوّنة، وجدت في الانعكاسات المُتباينة للضَّوء ما يُثير فتنتها، فراحت تُرفرف بأجنحتها، مُلقيّة بِظلالها المُتبدلة على وريقات النبات الغَضَّة، برشاقةٍ مُنقطعة النَظير، لتبدو أخيلتها في حركتها

الدؤوب ذات منظر أخاذ، حتى ليُخال للنَّاظر، أنَّ تلك الوريقات الخضراء، تبدل مواقعها، مع كلِّ طرفةِ عين.

في ذلك الوقت، وعلى نحو بدا عبثياً لأبعد الحدود، التقطته والدته من الماء، الذي اختلط بطين الأرض، حيث مسطبة القطن التي كانت مُنهمكةً في سقايتها، فغافلها المَخاض، وبعد لأيٍ، أطلقت صرخة استغاثة باتجاه والده الذي بات، بمحض المُصادفة، على مسافة قريبة منها، ثم واجهت الموقف بشجاعة فيها الكثير من المُجازفة بحياتها.

وإثر ذلك، أبديا معاً، خبرتهما الحياتية الثرّة، في مواجهة الحالات الطَّارئة، فربطوا حبل السرَّة، قريباً من بطنهِ النّاهد، بخيط نَسلهُ والده بمهارةٍ من سرواله القطني العَتيق، ثمَّ بسكينه الحادة، فصل عن الطفل مشيمته، وحفر لها حفرة عميقة في قاعِ الحقل، ثمّ أهال عليها التُراب الأحمر، حتى توارت تماماً عن الأنظار.

كان ذلك في العاشر من شهر حزيران لعام 1965، حيث دوت الصرخة الأولى للمولود الجديد، في الفضاء الرَّحب، ليترجع صداها إلى مسافات بعيدة.

وإذ استقبلوا مولودهم في عزِّ الصيف، وفي وقت الظّهيرة، فقد منحوه اسم ضياء، فبات اسمه الكامل ضياء كريم سعيد.

وفي تلك البيئة الفلاحيَّة، الواقعة على أطراف مدينة سلمية، حيث جفاف الباديَّة، وخشونة الطِّباع، أمضى ضياء سنوات طفولته وصباه، فكانت تلك البيئة، على بساطتها، وضحالة مداركها، لا تتسامح مع أي هفوة، مهما بدت صغيرة، ومهما يكن موضوعها.

فكلّ تفاصيل الحياة، في ذلك الرِّيف، كانت مُقننة، ومحفوظة على نحوٍ صارم، كما لو أنَّها قد حُفرت على مسلات حمورابي البابليَّة، فيخضع كل من يخالفها للحساب والتضييق على نحو مؤلم.

وحينما صار ضياء في المدرسة الابتدائيَّة وجد له، من خلالها، نافذة للهروب من هذا الجحيم، عبر مثابرته على الاجتهاد وقراءة كلّ كتاب أو قصاصة من جريدة أو مجلّة تقع عليها يداه، فكان يحتفظ بأجزاء المجلات العتيقة، التي كان عمّه أحمد سعيد، الموظف في العاصمة دمشق، يأتيه بالمتراكم منها لديه، في كل إجازة يقضيها في القرية، فكانت تشكل، بالنسبة له، كنزاً لا يقدر بثمن، وصار يثير اعتزازه بنفسه، طلب أخيه الأكبر حامد، ورفاقه الشبان، إحضار صندوق تُحفهِ الوّرقيّة، ليمضوا الساعات الطوال في تفحص محتوياته، فيقعون على مقالات

شيقة، أو طرائف، أو صور لحسناوات من مشاهير الشاشة، وصار لهم في ذلك تسلية ممتعة، إذ كانت القرية، خلواً من أية وسائل للترفيه، فلم تكن الكهرباء قد وصلتها بعد.

وعلى امتداد سنوات دراسته، صار لضِياء في الكُتب، التي واظب على استعارتها من مكتبة المدرسة، مصدراً ثراً للتزود بالمعرفة، حتى إذا نال الشهادة الثانوية العَّامةِ بفرعها العلمي، تكلّف مشقات، لا طاقة للكثيرين على تحملها، حتى وصل إلى الجامعة.

وبعد معاناة طويلة، تمكن من الحصول على شهادة الإجازة في الصيدلة، فكان ذلك، بالنسبة لواحد عاش ظروفه، انتصاراً عظيماً، يُعادل انتصار الحلفاء على هتلر، في الحرب الكونيّة الثانيّة.

وفي جامعتهِ، كان ضياء قد سخَّر مُعظم أوقات فراغه للقراءة، وأخذت الرواية الحيز الأكبر من اهتمامه، ومنها الرواية الروسيّة في القرنِ التّاسع عشر، حيث افتتن بكتابات نقولاي غوغول، وإيفان تورجنيف، وأنطون تشيخوف وبوشكين، وميخائيل ليرمنتوف، وليون تولستوي، وفيدور دستويفسكي، وقد كان للأمير "ليون نيكولايفيتش ميشكين" بطل رواية "الأبله"[1]، أثراً عظيماً في بعثهِ نقياً، حيث

جسَّد له الأمير ميشكين المثال الأعلى للكمال الرُّوحي والأخلاقي.

ثم انتقل إلى قراءة الكثير من مؤلفات ما سُمي "أدب الواقعية الاشتراكية" ولكن باستثناء رواية "السفينة البيضاء"، التي راح جنكيز إيتماتوف، يُعري فيها، على نحو صريح وجريء، بيروقراطية وفساد النظام السوفيتي، لم تكن تروق له تجربة الأدب السوفيتي، إذ وقع الكُتاب السوفييت، على حدِّ زعمه، في حالات من التزَّلف والمُداهنة الرَّخيصة، للحزب الحاكم، في حين كان واجبهم أن يقرأوا الواقع على نحو نقدي، فتلك كانت ولا تزال، حسب رأيه، مَهمة الأدب.

وفي مرحلةٍ لاحقة، استحوذت الفلسفة، بمختلف تشعباتها على اهتمامه، فأتى على كل كتاب فلسفي، وقعت عليه يداه، يستقي منه معرفةً، فيزداد شغفاً وفضولاً للاطلاع أكثر.

وكانت النقلة النّوعيّة في حياته الثقافيّة، قد بدأت حينما وقعت عيناه لأول مرة على مؤلفات الكاتب الإنكليزي "كولن ويلسون"، فَفَتح له ويلسون، الذي امتلك روحاً مُتمردة، باباً على عوالم أكثر اتساعاً من ضيق أُفق الإيديولوجيات السّائدة، مما مكنَّه من الغَوص عميقاً في قضايا الإنسان الجوهرية، المُتعلقة بالرُّوح والتصوف والجنس، هذه الأقانيم الثلاثة، التي عَبرها يتدفق ثراً الكنز المَعرفي للبشريّة.

وقرأ ضياء المُؤلفات الكاملة لكولن ويلسون، فشكلت له حافزاً، للتعمق في كتبِ الأديان والرُّوحانيات، ما جعله يواظب، بعد تخرجه من الجامعة، على قراءة القرآن، والتوراة، والأناجيل الأربعة، ثمَّ قرأ كتب المتصوفة الإسلاميين، أمثال عبد الكريم الجيلاني، ومحيي الدين بن عربي، فكان لفيلسوف الصوفيَّة، الأخير، دوره الهام في هدايتِهِ إلى التَّعرف على مذهب "وحدة الوجود"، بشقه المثالي.

وإثر ذلك انصرف إلى قراءة فيلسوف التنوير الهولندي باروخ اسبينوزا، فتعرف من خلالهِ على مذهب "وحدة الوجود" في صياغته المادية الجريئة. وهكذا صار يرى الكون، كُلاً مترابطاً مع خالقه، ترابطاً لا انفصام لعُراه، على أرضيَّة توافقيَّة من المادة والوعي، التي تسري في الموجودات كافة، دون استثناء.

ولأنه تَحدر من بيئة متواضعة من النَّاحيَّة الماديَّة، فقد كان على ضياء العمل في مهن شتى لتحصيل معيشته، والتَّمكن من استكمال تعليمه الجامعي، فحينما ضاقت به السُبل خلال سنته الدراسيَّة الثَّالثة في الجامعة، وجد له عملاً في شركة الدِّيماس للدواء بدمشق، بمساعدة عمَّه أحمد سعيد، وقد ساعده صديق تعرف إليه في تلك الشركة، اسمه مظهر عبد

الواحد، في استئجار غرفة تملكها جدته العجوز أم أحمد، فكانت غرفة واسعة مجهزة بفرش جيد، تقع في دار عربية من منطقة الحفيرية من العاصمة دمشق.

كانت أم أحمد في عقدها التَّاسع، محدودبة الظهر، هزيلة العود، تستخدم عكازاً من خشب الزان ليساعدها على المشي، ونظرها كما سمعها شحيحان، فكان ضياء يهرع لمساعدتها في مختلف الحالات التي تحتاجه فيها، فيتهلل وجهها فرحاً، وتشكره، ثم تتمتم دعواتها له بالتوفيق والسعادة وطول العمر، فكان يشعر بالغبطة، وكأنَّ روح جدته المتوفاة، قريبة منه.

ولهذه الأسباب، صارت الجدَّة أم أحمد مُتسامحة معه، تتغاضى عن أنَّه يستقبل بعضاً من أصدقائه، في غرفته، أيام العُطل الرّسميّة.

وقد تصادف، في نهاية أسبوع، من صيف عام 1982، أن كان في ضيافته اثنان من أصدقائه هما نضال الأحدب، وأسعد عيسى، وفي الوقت ذاته، كانت صالة سينما الكندي تعرض مهرجاناً للأفلام السوفيتيّة، فقرروا ثلاثتهم حضور فيلم عن ثورة أكتوبر الاشتراكيّة العظمى، تحت عنوان "لينين في أكتوبر".

وصلوا إلى صالةِ السينما حوالي الثَّامنة والنصف مساء، وفي تمام التاسعة كانوا مشدودين إلى الشاشة الكبيرة، وهم يشاهدون، لأول مرة، القائد البلشفي الشّهير لينين، معتمراً قبعتهِ المميزة، وبشاربه الأسود الكثيف، ولحيته المقصوصة على شكل مُثلث، وإحدى يديه مدسوسة أفقياً في صدارته الرَّماديّة، بينما الأخرى مشدودة كالسهم تشير إلى الجمهور الذي كان يخطب فيه، فشعر النظَّارة، وكأنهم في حُلم، وأن لينين كان يخطب فيهم، فالتهبت الأكف بالتصفيق الحاد المتواصل، الذي عبّر حينها، عن شعبية القائد البلشفي، لدى مثقفي الطبقة الوسطى، التي كانت، في ذلك الوقت، تُشكل الغالبية في المجتمع المدني السوري.

أعقبت الفيلم، ندوة حوارية استمرت حتى الواحدة بعد منتصف اللّيل، مما جعلهم يتأخرون في العودة، وكان الجوع قد ألم بهم، فأعدَّ ضياء عشاءً سريعاً من البيض والمرتديلا، وسلطة الخُضار، كما فتح زجاجة من نبيذ العنب الأحمر، وراحوا يتسامرون، فقال نضال الأحدب، المُجاز في الرياضيات، الذي كان يؤدي الخدمة الإلزامية برتبة رقيب أول في الجيش النظامي:

- لقد كانت مناسبة متميزة، أن نحضر فيلماً رائعاً عن ثورة أكتوبر الاشتراكية العُظمى، وقد بيَّن

الفيلم أهميَّة لينين كقائد ماركسي من الطراز الرفيع، وشخصية فذّة على نحو لافت.

كان نضال الأحدب يتحدر من أسرة صيادي أسماك في اللاذقيَّة، من السَّاحل السوري، وقد صار منذ مرحلة دراسته الإعدادية عضواً ملتزماً في الحزب الشيوعي السوري، فبدا امتداحه لشخصية لينين أمراً معتاداً، وفي الواقع لم يكن ثمة خلاف على شهرة لينين كقائد ثوري مرموق، ولكن أسعد عيسى، اليساري المُتطرف، كان يرى في النظام السوفيتي حامياً للأنظمة الاستبداديّة في العالم، ووصياً غير نزيه، على الحركة الشيوعيَّة العالميّة، فقال متوجهاً بناظريه إلى نضال:

- بالتأكيد كان لينين قائداً شيوعياً ثورياً، فهو دون أدنى شك، شخصية تاريخية فذّة، ولا خلاف على ذلك، ولكن ثمَّة خطأ أساسي ارتُكب، في التَّجربة السوفيتيّة، هو تحريف الثورة البولشيفيَّة لنظرية ماركس، إذ اشعلوا تلك الثورة تحت شعار عريض بأن "كلّ السلطة للسوفيات"، ولكنَّهم بعد انتصار الثورة، أقاموا دولة بيروقراطيّة بوليسيّة، وحافظوا على استمرارها، بدلاً من تسليم السلطة للبروليتاريا التي ثاروا من أجلها، وهكذا جعلونا، لعشرات السنين، نعيش على وهم انتصار

الشيوعية، بينما في واقع الحال، كانوا يبنون نمطاً مُتخلفاً من أنماط رأسماليّة الدولة.

تناول نضال رشفة من كأس النبيذ الذي كان أمامه ثُمَّ قال:

- لقد كان من الضروري في مرحلة من مراحل انتصار الثورة البولشيفية، خصوصاً في بدايتها، أن تُصبح الدولة، المُمثلة للكادحين، هي المالكة الحصرية لوسائل الإنتاج، لكي تنهض الثورة الفتية بأعباء المرحلة الاشتراكية في توزيع الثروة، على مبدأ: "من كلٍّ حسب قدرته، ولكلٍّ حسب عمله"، وكان الهدف من ذلك تمهيد السبيل، على المدى الاستراتيجي، لقيام المجتمع الشيوعي على مبدأ: "من كل حسب قدرته، ولكلٍّ حسب حاجته".

تنحنح أسعد، وقال مُستنكراً:

-ولكن الدولة، التي أشادها البلاشفة، قامت على أكتاف العُمال والفلاحين، ثم تغولت عليهم، فصار الحزب، بعقليته البورجوازية الصغيرة، يعتبرهم مُجرّد تلاميذ في مدرسته، ولم يكتفِ بذلك، بل راح يُعيد إنتاج الطبقة البورجوازية البيروقراطية، التي عمادها المُثقفون، المُتحدر غالبيتهم من العهد القيصري، الذين هيأ لهم

المناخ السياسي المُوارب، فرصة امتطاء الموجة الثوريَّة، ليعودوا، من جديد، إلى سدة الحُكم، ولكن بثوب أحمر، وهكذا، فبدل أن تضمحل الدولة، لصالح استلام كادحي السوفيات السلطة، تم تسليم السلطة إلى الطبقة التي ثاروا عليها، بهدف إسقاطها، وصار حُلم اليسار الماركسي، في ذلك الوقت، المطالبة بدولة ديموقراطيّة ذات مخالب ناعمة، على غرار النَّمط الأوربي.

في حين بدا جلياً، أنَّ البيروقراطيّة الجديدة، لن تتخلى عن امتيازاتها، التي مُنحت لها، من خلال قيادة الحزب البلشفي الحاكم. وبذلك تمَّ تأبيد وجود الدولة، بوظائفها التقليدية، ولكن وفق نمط استبدادي قروسطي بشع.

تناول نضال رشفة من كأس النبيذ، وقال:

-إن ظروف الحرب الوطنيّة العُظمى، هي التي حالت دون اضمحلال وظائف الدولة، في بلاد السوفيات، كما أنَّ الوَضع الدولي كان ولم يزل مُعادياً للشيوعية، ويحول دون تطبيق الفرضيَّة الماركسيَّة، حول اضمحلال الدولة، إثر انتصار الثورة البروليتاريَّة.

أبدى أسعد عيسى مزيداً من الاستياء، ومع ارتشاف جرعة من النبيذ، بدا أكثر انتشاءً، فقال:

-اذا كانت الثورة البولشيفيَّة، وهي بالأساس، ثورة الكادحين، لا تثق بقدرتهم على تأمين المجتمع الثوري، فهذا يعني أنَّه لم تكن ثمّة ضرورة للقيام بثورة كهذه من الأساس، وكلّ التضحيات الجسام التي دفع الكادحون، من الشعوب السوفيتية، ثمناً لها خلال سنوات الحرب الأهلية، تلك التضحيات التي تحدث عنها بإسهاب ميخائيل شولخوف، في روايته "الدون الهادئ"، قد ذهبت سُدىً.

ويا للأسف، فإن إخفاق التجربة السوفياتية في جعل الدولة تتلاشى، لصالح طبقة البروليتاريا، وطاقاتها الخلاقة، جعل الماركسيّة تبدو في التطبيق العملي، نظريّة لبناء دولة ديكتاتوريّة قمعية، وليست نظريّة لطبقة البروليتاريا.

وهذا بالذات ما جعل التجربة السوفيتيّة، تفقد دورها الرِّيادي في إلهام كادحي العالم، للاقتداء بها.

تناول نضال رشفة من كأس النبيذ الذي أمامه، وفي محاولة للخروج من مازقهِ في الحوار، عزف، كعادة الشيوعيين التقليديين، على مزمار "اليسار الطفولي في الشيوعية"، فقال مخاطباً أسعد بشيء من الخشونة:

-انتم، كيسار متطرف، تُعانون من علّة اليسار الطفولي في الحركة الشيوعية، كما وصفكم لينين في كتابه، بالعنوان ذاته، تعشقون التنظير المُجانب للوقائع، ولا حل لكم، لأنكم لا تأخذون الظروف الموضوعية بنظر الاعتبار، بل تُعبّر آراءكم عن نزعات ذاتية غير مُنضبطة.

وبعد أن تثاءَب، وفرقع إصبعيه الوسطى والسبابة، رد أسعد ممتعضاً:

- كفانا كيل اتهامات بغير أدلة موضوعية، كلنا مُتضررون من التطبيق الفاشل لنظرية ماركس، في التجربة السوفيتيّة، وهذا بالذات ما سيجعل تلك التجربة تفشل، وتندثر، في نهاية المطاف.

كانت تلك نبوءة قال بها أسعد عيسى، ومن المثير أنها تحققت فيما بعد، ففي أواخر ثمانينات القرن المُنصرم شهدت الحقبة السوفيتيَّة، ومُعسكرها الاشتراكي، سقوطهم المُدوي المُؤلم.

كان ضياء مراقباً صامتاً لحوارهما، حتى إذا عيل صبره قال لهما:

- لو نظرنا بموضوعيّة، ما الفائدة التي ترتجى من الحوار في أوضاع بلدٍ ليس لنا في مصيره ناقة ولا جمل، بينما لدينا الكثير من القضايا الوطنيَّة المُلحة، التي يجدر بنا التركيز عليها،

كالقضاء على الفقر، والبطالة، والأميّة، وإشاعة التنوير، بما يؤدي إلى خروجنا من نفقِ العقليّة النَّمطيّة المُتوارثة، التي لم نزل نُعاني من تبعاتها الوخيمة؟

فكان لما قاله ضياء أثره الغريب، في التقريب بين وجهات نظر صديقيه، إذ راحا يؤكدان معاً، على مسألة الترابط العضوي، بين واقعنا المُتخلف، وبين مساعي الأممية البروليتارية الحثيثة، للخروج بالعالم أجمع من ظلمات التخلف والتبعية، إلى نعيم الشيوعيّة.

وجد ضياء في ذلك التبرير، قمة الغرق في الأحلام الخيالية الفارغة، التي وصل إليها الكثير من مثقفينا.

كانت الساعة تشير إلى الخامسة صباحاً حينما استسلم نضال وأسعد إلى نوم عميق. بينما استلقى ضياء على سريره، وهو يفكر:

كم هم مساكين هؤلاء المثقفون، الذين رهنوا حياتهم، لترديد عبارات جرائدهم الحزبيَّة، غير مشككين، ولو للحظة واحدة، بمصداقيتها، وما كانت تلك الجرائد سوى وسيلة للترويج لتجار السِّياسة الحَاذقين، الذين يديرون تلك الأحزاب، بكروشهم المتورمة، وعبر صفقاتهم السريَّة المشبوهة.

(2)

كانت شوارع مدينة مصياف تَعجُّ بالحركةِ، فالنّاس في إيابهم المَعهود من العمل، في عزّ الظّهيرة.

حينما توقفت سيارته الفخمة، حذاء الفيلا التي يَملكها، الواقعة على ناصيّة الشّارع الرئيسي، المتقاطع بواسطة منحنٍ دائري، مع الشّارع الفرعي الملاصق لكازية عبد الرَّحيم، وقد تصدرت الواجهة المستديرة للفيلا، حديقة غَنَاء، تطل على كلا الشارعين.

ترجل علي الراعي، الذي بدا شاباً، كأنَّهُ لم يتجاوز الخمسين من عمرهِ، على الرغم من أنّه، في حقيقة الأمر، قد ناهز السابعة والستين عاماً، وهو رجل وسيم، طويل القامة، حنطي البشرة، عيناه العسليتان تشعان دفئاً، فتشعرانك بالرَّاحةِ والأمان، وقد بدا ببنطاله الجينز الأزرق، وقميصه الأبيض، وسترته الكحلية، في غاية الأناقة والترتيب.

قطع بخطواتٍ رشيقة، السلالم المؤدية إلى الباب الخارجي للفيلا، فوجد وفاء الزير، كأنها كانت تنتظر حضوره، فاستقبلته بهيئة، تصنعت من خلالها الكثير من الهيبة والرَّصانة.

ثم تناولت يده، وقادته إلى صالة جانبية، تطل على الجهة الجنوبية من حديقة المنزل، اعتادت أن تستقبل

فيها ضيوفها المُقربين، وبعدما أغلقت خلفها الباب بهدوء، أجلسته إلى أريكة مريحة، ثمّ جلست إلى جواره، وقالت بصوت مشحون بالتوتر:

- أعتقد أن الوقت قد حان لنقرر مصير ابنتنا عفاف، فقد حدثتني اليوم بشأنها، للمرة الثالثة، صديقتي زينب المحمود، والدة أحمد الأسمر، وأظنك تعرفه جيداً، فهو شاب على درجة جيدة من الوسامة، إضافة إلى كونه ضابطاً في الجيش برتبة نقيب، ووالده رشيد الأسمر من مالكي الأراضي الأثرياء في مصياف، وإذا استثنينا أخته كوثر، سيكون الوارث الوحيد لوالده.

بالإضافة إلى ذلك، فهو الخاطب الرَّابع، الذي تثابر عفاف على رفض الاقتران به، وكلانا يعلم عن أسبابها الواهيَّة، المُتعلقة بقصتها مع سمير الأغا، وحبِّهما المقطوع الرجاء منه. وأنني آمل أن تجد لك تصريفاً مُناسباً لهذه القضيَّة، فأنا ما عدت أطيق وضعاً متأرجحاً مُقلقاً كهذا.

فبت لا أعلم كيف أداري الأمر عن معارفي، الذين راحت تشغلهم قضية عزوف عفاف عن الزواج، بالرُّغم من وسامتها نادرة المثال، والعدد المُتزايد من الشبَّان، الذين يلتمسون طلب يدها للزواج.

كانت وفاء الزير، لم تزل، وهي في سنتها الخامسة والستين، بارعة الجمال، شقراء الشَّعر، بيضاء الوجه المشوب بحمرة خفيفة فاتنة، نحيلة الخصر، معتدلة الطول، وعيناها الفيروزيتان تُشعان جمالاً وألقاً.

وقد عرف عن وفاء الزير أنَّها امرأة تقليدية، ومُغترة بذاتها إلى حدٍ بعيد، إذ تحدرت من منشأ أرستقراطي، فوالدها جلال الزير، هو الثَّري المعروف في مدينة حماه، يمتلك شركته الخاصَّة للزيوت المعدنية، ويعمل إضافة إلى ذلك في مجال الاستيراد والتصدير، وله علاقاته المُتشعبة مع كبار التجار، والمسؤولين في الدولة، كما أنَّه يمتلك العديد من الورشات، التي تعمل لصالحه في تعهدات البناء، وقد اشتُهر بإدارته الحازمة لأملاكه، وعدم تساهله مع موظفيه.

أما على الصعيد الاجتماعي، فقد عُرِفَ عنه تعاليه على الآخرين، فورثت السيدة وفاء تلك الصِّفة عن والدها، وراحت تنظُر إلى النَّاس، من بُرجها العاجي، على أنّهم دون مستواها.

ولأنَّ سمير الأغا ينحدر من عائلةٍ شيوعيَّة، مستورة الحال، فقد وطنَّت العزم على أن ترفض طلبه للزواج من ابنتها عفاف، وبالرغم من أنّ أسباب

رفضها لم تكن منطقية، فقد درجت وفاء على اعتبارها أسباباً وجيهة، لا تقبل المُساومة، أو النَّقد.

أجابها زوجها وإمارات القلق باديَّة على مُحياه:

- أليس من الأفضل تزويجها بمن تحب؟ فأنا لا أجد ما يعيب سمير الأغا، فهو شاب طموح، وكمهندس زراعي له مستقبله الذي ينتظره، هذا بالإضافة إلى أنَّ عفاف مُتعلقة به إلى درجة العبادة، وحتى لو كان سمير شيوعياً فما العيب في ذلك؟ وأظنك لا تجهلين، أنّه لولا أنّني، ذات يوم، قد أقسمت يمين الولاء لحزب البَّعث، لكنت قد صرت شيوعياً، كما أنّ الفكر الماركسي، لم يزل يستأثر باهتمامي.

كان علي الراعي ينحدر من بيئة فلاحيَّة متوسطة الحال، وقد حاز بجهوده الذَّاتيَّة المُضنيَّة، على شهادة الدكتوراه في الأدب العربي، وعاشر أثناء وجوده في الجامعة، مختلف الثقافات، فكان الأكثر تعقلاً وتفهماً لمُتطلبات أبنائه، ومتساهلاً في منحهم الحريّة، ضمن حدود لا تصل إلى تعريضهم للخطر.

ولكنه، في الوقت ذاته، كان ضعيفاً أمام إصرار زوجته، التي كان يعشقها بجنون لافت، وبات يُدرك، منذ أيامه الأولى معها، أنَّه لا بد من الرّضوخ

لمشيئتها، في نهاية المَطاف، إذا شاء أن يستمر زواجه مستقراً وسعيداً.

وبغنج ودلال أبدت، وفاء الزير، امتعاضاً واضحاً، حينماً مطَّت شفتيها استخفافاً، وقالت:

-حبيبي، لو كنت على علم بميولك الماركسيَّة، لما كنت ارتضيت الاقتران بك منذ البدء، ولكنني مع ذلك أعبدك.

وبعدما أخذت قبلة عميقة من شفتيه، غَشتْ تعابير وجهها مسحة خفر عابرة، ثم ما لبثت أن تصنعت الجدّ، من جديد، واستدركت تقول:

- كم مرة عبَّرتُ لكَ عن إنني أعترض على زواج كهذا، ولا يمكنني تمريره إلا على جثتي، لأنَّني أجده زواجاً غير مُتكافئ، ثمَّ أنَّه تمَّ رفض قبول سمير الآغا في أية وظيفة من وظائف الدّولة، التي تقدم إليها، فصار عالة على ملكيّة الأرض المُتواضعة، التي ورثها عن والده، ولولاها لأصبح الآن مُتسولاً. وهو بالتأكيد، كما كان والده، ينتمي إلى الحزب الشيوعي، وهؤلاء الملاحدة لا يمكن أن تكون لي مَعهم صلة نسب.

بدا علي الراعي، على طبيعته في التعامل مع زوجته، مُتساهلاً، فقد روضته وفاء الزير، منذ بدايتهما معاً، بأسلوبها السَّلس وأنوثتها الطاغيّة، على

قبول رغباتها، حتى لو لم يكن مقتنعاً بتلك الرغبات، ولسوء طالع عفاف فقد كان والدها قد تسلم، منذ وقتٍ قريب، منصباً مُهماً في الدولة، بمرتبة معاون وزير، مما جعله أكثر ميلاً للاتفاق مع مخاوف زوجته، من انتماء سمير الأغا إلى الحزب الشّيوعي، فارتأى، أن من الأسلم له، أن يوكل إلى زوجته حلّ تلك المُعضلة بالطريقةِ التي تُناسبها، وفيما يُشبه المُساومة، راح يبتسم لزوجته، وهو يقول:

- حبيبتي: لا بدَّ أنَّك تُدركين أنني أعبدك، وأثق بحكمتك، وحسن تدبيرك، ولهذا سأترك لك الفصل في هذه القضيَّة، وعليك وحدك التصرف فيها بما يناسبك.

وجدت وفاء الزير في موقف زوجها، موافقة ضمنية صريحة، على من اختارته ليكون زوجاً لابنتها عفاف، وبعدما طوقت عنقه بذراعيها البضتين، عاجلته بقبلة طويلة من شفتيه، ثمَّ عقبت تقول:

-إذن حبيبي ربما يتوجب عليك التعرف، عن قرب، إلى أحمد الأسمر، في أقرب فرصة ممكنة.

أجابها زوجها وإمارات القلق باديّة على مُحياه:

-ليس لدي أي اعتراض على ذلك، ولكن أليس من الأفضل أن تُكرري مُحاولاتك مع عفاف بهدف إقناعها بذلك الخاطب، قبل اتخاذ قرار مُتعجل، قد نندم عليه في مُستقبل الأيام؟

فما كان من وفاء الزير إلا أن ابتسمت باستخفاف، وقالت:

-لا تُعير كثيراً من الاهتمام إلى دلع البنات، عفاف قد وافقت على القبول بالخاطب الذي أجده مناسباً لها، وكما يُقال: "خير البرِّ عاجله"، ولهذا سأدعو أحمد الأسمر وأهله، لجلستنا مساء الغد، فما هو رأيك؟

رد علي الراعي وهو يتبع زوجته إلى غرفة الطعام:

- ولكن ربما علينا أن نتريث بضعة أيام، إذ استجد لدي سفرٌ مفاجئٌ إلى العاصمة دمشق لحضور مؤتمر طارئ، سيستمر خلال اليومين القادمين.

وبعدما تصدَّر طاولة الطعام، فتح مذكرته، ودون فيها الموعد، بالتَّاريخ والسَّاعة، كما هي عادته، ثم انبرى قائلاً:

- فليكن موعدنا في تمام التَّاسعة من مساء الثلاثاء القادم، في الحادي والعشرين من شهر نيسان.

قبلته وفاء على جبينه هذه المرة، والابتسامة الظافرة تعلو محياها، وهي تقول:

-ليكن حبيبي، لك ما تريد، اتفقنا إذن.

كانت وفاء قد ضمنت موافقة عفاف على الزَّواج من أحمد الأسمر بعدما هددتها بأنَّها ستنتحر إن لم تقبل بشروطها للخاطب الذي ترتئيه مناسباً لها، وهذا ما جعل الرُّعب يدبَّ في قلب عفاف، فوافقت مُرغمةً، على القبول بأحمد الأسمر خاطباً.

ولكنَّ وفاء الزير تكتمت، بمكر، أمام زوجها، على تصرفها المشين، حتى تتمكن من تنفيذ مشيئتها، وقد نجحت في ذلك أيما نجاح.

(3)

في الثامن عشر من شهر آذار لعام 2000 بلغت عفاف الراعي عامها العشرين، فبدت بفتنتها، مثيرة كثمرة خُرافيَّة ناضجة، فهي بوجهها الأبيض المستدير، المَشوب بحمرة خفيفة، وشعرها الأشقر المُرسل على استدارتي كتفيها بانسياب أخّاذ، وعينيها الزمرديتين الواسعتين، وجبينها ناصع البياض، وأنفها المُستدق الصغير، وشفتيها الكرزيتين، وقدّها النحيل، وقامتها المُعتدلة كوالدتها، تبدو كملكة جمال متوجة على عرشها.

ومنذ طفولتها الباكرة، اعتادت عفاف أن تكون مُنطلقة في الحياة على سجيتها، إذ تعلقت، باللَّعبَ واللَّهو مع أقرانها، من مختلف الانتماءات الاجتماعية، من البنات والصبيان، في حارة أهلها بمصياف، في تحدٍ واضح لإرادة والدتها، التي كانت توقع عليها العقوبات المُتكررة، بهدف ثنيها عن مشاركة أترابها، ومن هم دون مستواها الاجتماعي، مرحهم وشقاوتهم.

ولكنَّ تلك العقوبات لم تكن لتُثنِي عفاف عن مرامها، في ممارسةِ طفولتها، على سجيتها، مهما كلفها ذلك من متاعب ومشقات.

وبعدما يئست والدتها، بمرور الوقت، من إصلاح ابنتها، كما كانت ترغب بذلك، اقتنعت مرغمة، أن تتركها وشأنها.

عشقت عفاف الطبيعة، والورود، والفراشات الملونة، الَّتي طالما ثابرت على مطاردتها، بفرحٍ غامرٍ، في كل حين كانت تخرج للتنزه، برفقةً أُسرتها، في الحليمات، تلك المنطقة الأخاذة من مصياف، الثريَّة بتضاريسها الطبيعيَّة، المُزدهرة بأشجارها، وسواقي الماء التي تخترقها، والمرتفعات التي تسلقت الأشجار المتنوعة سفوحها، تحدها من جهتي الجنوب والشمال، مما جعل طفولتها، خلافاً لأترابها، على قدر عالٍ من التناغم والحيويَّة، والمُتعة، فكانت تبدو، على طبيعتها، نقيَّة كالماء، ثائرة كإعصار.

وحينما صارت في المدرسةِ الابتدائية، أبدت عفاف نباهةً وتفوقاً ملحوظاً على أقرانها، مما لفت الانتباه إليها، إلَّا أنَّها، حينما أنهت المرحلة الثانويَّة من تعليمها، أصرَّت، خلافاً لرغبةِ والدها، الذي كان يَطمح إلى أن تستكمل دراستها في الجامعة، فقررت أنّها تفضل على ذلك، الالتحاق بمعهد لإعداد المعلمين في مدينة حلب، مختصرة سبيلها إلى مُمارسة الحياة العملية، حيث كانت مشدودة، بقوة لا تقاوم، إلى الأطفال الصغار، الذين كانوا يجسدون

لها، رمزاً للبراءة والعفوية، وتتطلع أن يكون لها، من خلالهم، فرصتها لإثبات ذاتها.

ولكنَّ أمراً هاماً، لم يكن متوقعاً، حدث مع بداية دراستها في المعهد، زلزل حياتها، ففي يوم شتائي شديد البرودة من أيام كانون الثاني لعام 1998، وعلى مسرح كلية الهندسة الزراعية في جامعة حلب، كانت تُعرض لأول مرة مسرحية الجُمجُمة، للكاتب التركي ناظم حكمت، من إخراج نجم عليان، وكانت عفاف قد حضرت ذلك العرض المسرحي بدعوة تلقتها من زميلتها في المعهد، ريم الآغا، وفي الوقت ذاته، كانت ريم قد تلقت بطاقتي الدَّعوة لحضور المسرحية، من ابن عمها الشّاب سمير الأغا الذي كان حينها طالباً في سنته الرَّابعة من كلية الهندسة الزراعيَّة في جامعة حلب، وقد حضر المسرحيَّة إلى جوار قريبته ريم، ومنذ لحظة وصوله بدا تأثره وانبهاره واضحاً، بالجمال البارع لعفاف الراعي، حينما تبادل معها التحيَّة، وبضع كلمات مُجاملة، قبيل بدء العرض المسرحي، وحاولت عفاف، التي لفَتَ سمير بوسامته، انتباهها، أن تبدو في وضع طبيعي تماماً، بالرُّغم من أنَّها، في قرارة نفسها، كانت قد انجذبت إليه منذ اللحظات الأولى، وأعجبت بشخصيته، أيما إعجاب.

ومع حلول نهاية عرض المسرحية بدت على عفاف بوادر تأثر شديد بمصير الدكتور دالبانيزو، حينما كانت جُمجُمته تُعرض للبيع بالمزاد العلني، بمائة دولار، وهو الطبيب العبقري، الذي حولته رؤوس أموال الأثرياء، إلى مجرد مادة للتندر والسخريَّة. ولفرط تأثرها بتلك النهاية المأساوية، راحت تبكي بصوت مسموع، ثم أخذتها رجفة مباغتة، فبدت وكأنها محمومة، حينها تقدم منها سمير الأغا هلعاً، فخلع عنه معطفه، ووضعه على كتفيها، ومبدياً اهتمامه الشديد، عرض عليها اصطحابها إلى أقرب عيادة طبية، لكنها رفضت ذلك بشدة، وطمأنته إلى أنها ستعود سريعاً إلى طبيعتها.

اضطر سمير إلى مرافقتها، وابنة عمه ريم، إلى المنزل الذي كانتا قد استأجرتاه في حي سيف الدولة، وقد أصرّتا عليه أن يتناول معهما كوباً من الشاي السَّاخن، خصوصا وأنَّ صحة عفاف كانت قد راحت تتحسن، فلم يتوانَ عن تلبية رغبتهما، وخلال ذلك تحدث معهما في مواضيع شتى، مُستعرضاً جوانب ثقافته الثرّة، فبدى لعفاف فتى ذكياً على نحو مُدهش، وترك لديها، انطباعاً صاعقاً في روعته، مما جعلها تقع في هواه منذ لحظتها تلك.

ثم ما لبثت عفاف، مشبوبة الأهواء والعواطف، أن تعلقت بسمير الآغا على نحو جنوني.

وكان سمير يبادلها الشعور ذاته، لا بل بات يعبدها، ويلبي كل رغباتها، برضىً وسرور بالغ، فصارت لقاءاتهما تتم على نحو متكرر، واستمر هذا الهوى المشبوب العاطفة طوال عامين كاملين.

لكن رفض وفاء الزير قبول سمير الآغا نسيباً لها صار العقبة الكأداء، التي حالت دون زواجهما، فقررا في البداية إنقاذ حبهما، بكل ما أوتيا من قوة، حتى أن سمير عرض على عفاف الهروب معاً، والزواج المدني، بعيداً عن الأهل، ولكن عفاف، إثر إبداء موافقتها المبدئية على ذلك الإجراء، عادت وتراجعت عنه، آخذة بالاعتبار العواقب الوخيمة المحتملة، التي يمكن أن تترتب على تصرف مُتهور كهذا.

وفي الوقت ذاته، حينما حاولت عفاف إبداء جانب القوة في مواجهة الموقف المُتعنت لوالدتها، كان لتهديد والدتها بالانتحار، أثره الحاسم في ثني إرادتها، خصوصاً وأن ذلك قد ترافق مع الموقف المُحايد لوالدها، فما عاد لها من مخرج سوى الإذعان لإملاءات والدتها، خوفاً عليها من الإقدام على تصرف مُتهور، تعلم أنَّها كانت تعنيه تماما، ويمكنها تنفيذه بعنجهية، اعتادتها وفاء، كنوع من حب الظهور الاستعراضي، ولهذا قررت عفاف أن تتزوج بالخاطب الذي اختارته لها.

أما أحمد الأسمر فقد كان في عامه السابع والعشرين أسمر البشرة أسود العينين، ضيق الجبهة، ممتلئ الجسد، وبقامته المتوسطة الطول بدا على قدر متوسط من الوسامة.

فيما عدا ذلك، كان أحمد الأسمر قد غادر المدرسة بعدما حصل على شهادة الدراسة الثانوية بفرعها الأدبي، ليلتحق بالكليّة الحربيّة، وقد تربى منذ صغره، على مُتابعة السِّير الشعبيّة الرائجة، كرأس الغول، والزير سالم، والغزوات الإسلامية، تلك السيَّر التي دأب والده رشيد الأسمر على روايتها في سهرات العائلة، فشب عليها ابنه أحمد، وبات هو الآخر يتلوها على أقرانه ومعارفه في الحارة، باعتزاز وافتخار كبيرين، فيلاقي منهم الاستحسان والثناء، ولطالما بدا أحمد الأسمر في غاية الانتشاء، وهو يعبر بحركات يديه، كأنه راقص في سيرك، عن المواقف البطولية، التي يتلوها على سامعيه، خصوصاً تلك المشاهد التي تسيل فيها الدماء غزيرة.

فيما خلا ذلك، كان أحمد الأسمر فتى عادياً، على قدر متوسط من الذكاء، وقد تميزت طفولته إلى حدٍ بعيد، بسلوكه العنيف تجاه الحيوانات الأليفة، وتمزيقه لألعاب رفاقه الأطفال، واعتداءاته المتكررة على زملائه في المدرسة الابتدائيّة، تلك التصرفات

التي شكلَّت مؤشراً واضحاً على إيثاره لذاته، وعدم قدرته على التحكم بنزواته وعواطفه.

ولأنَّه افتتن، كما والدته، بجمال عفاف الراعي، فقد سعيا معاً، على نحو تقليدي، إلى تزويجه منها، بالرغم من إرادتها، إذ اعتبر أحمد الأسمر في ذلك الزَّواج عملاً مُثيراً، يُقدم على إنجازه، غير مُكترثٍ بما سواه.

وبالرُّغم من أن عفاف كانت واضحة معه، حينما حاولت ثني عزيمته، بشأن الزواج منها، فصارحته بموقفها منه، وحبها لسواه، وأنَّها لو أتيحت لها فرصة للاختيار لرفضته، وهي في قرارة نفسها تحتقره، فقد صار مُتعلقاً بها، أكثر من أي وقت مضى، مدفوعاً بنزوة داخلية عميقة، على إتمام زواجه منها.

(4)

ولجت كوثر الأسمر، الحائزة على شهادة الدكتوراه في الفيزياء الحديثة، الحرم الجامعي من بابهِ الشَّمالي متوجهةً إلى كليَّة العلوم، قسم الفيزياء، فوجدت المُدَّرج الذي ستُحاضر فيه غاصاً بالحضور، من طُلابها، وبعدما ألقت عليهم تحيتها المُعتادة، بدأت مُحاضرتها ،التي تتناول فيها أحدث الأبحاث في ميكانيكا الكَم، ونظريَّة الأوتار الفائقة، فأسندت راحة يدها اليُسرى إلى الطاولة التي أمامها، وراحت بيدها اليُمنى تُحرك مؤشر الماوس على شاشة اللابتوب، وعلى يمينها كانت شاشة كبيرة بيضاء، تم تعليقها على الجدار، لتظهر عليها صور العرض التقديمي، بواسطة جهاز للإسقاط مثبت، بقضيب من الفولاذ، إلى سقف القاعة.

وما أن انتقلت إلى الشريحة الأولى، حتى ظهر على الشَّاشة عنوان عريض يحمل اسم "نظرية كل شيء" فباشرت كوثر مُحاضرتها بالقول:

- إن التناقض الذي ظَهر، بين النتائج التجريبية للمعادلات الرِّياضيّة، المُتعلقة بالفيزياء الكلاسيكيَّة، متمثلة بنظرية النسبيّة، التي تهتم بسلوك وحركة الأجسام الكبيرة في الطبيعة، وبين نظيرتها، التي تُجرى بواسطة ميكانيكا الكم، التي تهتم بسلوك وحركة الجسيمات دون الذرية، قد

حال إلى الآن، دون إيجاد معادلة موحدة لكافة القوى في الطبيعة، متمثلةً بالقوى الكهرومغناطيسية، وقوى الجاذبيَّة، والقوى النوويَّة القويَّة، والقوى النوويَّة الضعيفة.

إذ لم نزل نجهل، إلى الآن، طريقة عمل الجاذبيَّة الكميَّة، في حالة الجسيمات دون الذريَّة، مما شكل عقبة، على طريق توحيد تلك القوى، بهدف التعبير عنها، بمعادلة واحدة، يمكنها أن تفسر كل شيء في الطبيعة.

وكما يقول العالم الرياضي كرونيكر[2]: "خلق الله الأعداد والباقي من صُنعِ الإنسان"، فعلى المنوال ذاته نقول: "في الفيزياء، خلق الله الرياضيات، والباقي من صنع الإنسان". فالمُعادلات الرِّياضية التجريدية، التي أعتدنا عليها أن تفتح آفاقاً أرحب أمام العُلوم الفيزيائيَّة، تمكنت أخيراً، من الكشف عن افتراض ثوري، ينطوي في الجوهر منه، على أن المادة في الطبيعة، إذا تمكنَّا من تكبيرها عدد كافٍ من المرَّات، سنجد في نهاية المطاف، أنَّها لا تتكون من نقاط مادية، كالكواركات[3] مثلا، وإنما من أوتار فائقة الدِّقة من الطاقة النقيَّة، وبذلك لم يعد الكوارك، الذي يُسهم في تشكيل عناصر نواة الذرة، هو الجسيم المادي الأولي غير القابل للانقسام، كما كان معلوما سابقا، بل

تلك الاوتار الدقيقة من الطاقة التي تم تأكيدها رياضياً.

وقد بينت المُعادلات الرِّياضيَّة أنَّ تلك الأوتار فائقة الدِّقة، من الطاقة النقيَّة، يلزمُها أن تهتز في فراغ ذا عشرة أبعاد مكانيّة، إضافة إلى بعد الزّمن، ليصدر عن اهتزازها المُعقَّد، كلّ المكونات الأساسيَّة لبناء المادة، أي كل شيء في الطبيعة، بدءاً من الكواركات، وحتى أكبر النجوم والمجرات.

بتعبير آخر، فإن هذا التنوع المُذهل الذي نُشاهده في عالمنا إن هو سوى سيمفونية، كونيَّة، تعزفها الطبيعة بمهارة على تلك الأوتار من الطاقة، كما تُعزف المُوسيقى، على أوتار آلة التشيلو[3]، وهذا يؤكد، مرة أخرى، على أنَّ الطّاقة هي الوجه الآخر لوجود المادة، كما أثبت البرت اينشتاين ذلك سابقا، من خلال نظريته النسبية.

وبالطبع فإنَّ فرضيّة الأوتار الفائقة، على الرُّغم من جمالها، لا زالت تحتاج إلى اختبارات للتثبت من مدى صحتها، وتطابقها مع النتائج التجريبية، قبل إقرارها كنظرية علميّة نهائيَّة.

والذي يقف عقبة في سبيل تلك الاختبارات، هو عجز أجهزتنا، المتوفرة حالياً، في أحدث

المختبرات المعاصرة، عن التكبير إلى الدرجة التي نتمكن من خلالها من ملاحظة تلك الأوتار فائقة الدقة.

ولكن ثمَّة فرضيَّة، دَرجَ عُلماء مُختبر سيرن، على تبنيها، تقول: أنَّه اذا تمكنا خلال تجربة التصادم الرأسي لتيارين من البروتونات، يسيران باتجاهين مُتعاكسين، بسرعة تقارب سرعة الضوء، من قياس كميَّة الطاقة، قبل التصادم، وبعده، ووجدنا أن ثمَّة نقص في كمية الطاقة، في نهاية التجربة، فإنَّ ذلك يعني أن قسم الطاقة الذي تم فقده، قد تسرب إلى بُعدٍ آخر، مُختلف عن أبعاد عالمنا ثلاثي الأبعاد.

وسيثبت ذلك، بما لا يدع مجالاً للشك، وجود أبعاد إضافية، لا يمكننا أن نلاحظها في حياتنا المُعتادة، لصغرها، وهذا بالتأكيد سيُشكل إثباتاً تجريبياً لنظرية الأوتار الفائقة، كما يؤكد العالم الأمريكي بريان غرين[5] أحد ابرز العُلماء، المُهتمين بإثبات نظرية الأوتار الفائقة، في مختبر سيرن.

توقفت الدكتورة كوثر، لترتشف الماء، من كأس أمامها، ثم تابعت تقول:

- وإذا قُدِّر لنا أن نُثبت صحة نظريّة الأوتار الفائقة، عبر التجربة، فستكون تلك نقطة البداية لوضع الأسس النهائية لـ "نظرية كل شيء"، وبذلك سنصل إلى نهاية عصر الفيزياء، إذ سنتمكن حينها من حل لغز الجاذبيَّة الكميَّة، وبالتالي إرجاع القوى في الطبيعة كافة، إلى قوة واحدة، والتعبير عنها، بمعادلة واحدة.

وستنتهي بذلك حالة عدم التوافق، بين نظريتي النسبية، وميكانيكا الكم، وسنتوصل إلى ما يمكن تسميته مجازاً "معادلة الخَلق"، أو "معادلة الرَّب"، ولأول مرة، في تاريخ العلم، سنتمكن من التحكم، في أدق وأبسط المكونات الأولية للطبيعة، وجعلها تعمل طبقاً لمشيئتنا، وتلك ستكون، أكبر الإنجازات العلميَّة على الإطلاق، التي يمكننا الحصول عليها، عبر كل العصور.

كان الحضور منبهراً، ومشدوداً بقوة، إلى محاضرة الدكتورة كوثر الأسمر.

وحينما تابعت إلى الشريحة التالية، ظهرت على الشّاشة الجداريّة، صورة داخليَّة، مُجسمة لمختبر سيرن (مُصادم الهيدرونات الكبير)[6]، فبدت المغانط الجبارة، المصنوعة من أطنان من خيوط الذهب فائقة الدِّقة، كما لو كانت لوحة زُخرفيَّة غاية في الترتيب والاتساق، تحيط بالحلقة الدائرية الدقيقة،

التي يبلغ طول محيطها سبعة وعشرين كيلو متراً، حيث يتم في هذه الحلقة، الشبيهة بالخاتم، مُصادمة رأسية لحزمتين من البروتونات تدوران، باتجاهين مُتعاكسين بالنسبة لبعضهما البعض، بعدما تصلان في دورانهما إلى سرعة تُقارب سرعة الضَّوء.

تابعت الدكتورة كوثر تقول:

- في الصورة التي تبدو أمامكم يظهر مختبر "سيرن"، وهو المُختبر العائد للمنظمة الأوربية للأبحاث النووية، ويجسد أكبر مُسرع للجسيمات في العالم، ومشاد على عمق مائة متر تحت سطح الأرض، على الحدود السويسرية الفرنسية، حيث يُعتبر أضخم مؤسسة بحثيّة علميّة في عالمنا المُعاصر.

إنَّ تصادم شعاعي البروتونات، اللذين يدوران باتجاه بعضهما على نحو متعاكس، بسرعه تقارب سرعة الضوء (99.99% من سرعة الضوء)، يؤدي إلى تهشيم تلك البروتونات، وتشظيها إلى مكوناتها الأولية الأساسية، حيث تتم مراقبة وتصوير نتائج تلك التصادمات، بوساطة كمبيوترات وكاميرات، فائقة الدقة، ليتثنى لنا دراستها، فيما بعد، من قبل مؤسسات الأبحاث العلمية، المنتشرة في شتى أنحاء العالم، بهدف

التعرف إلى الجسيمات الأولية الجديدة، التي نتجت عن تلك التصادمات.

وقد كان الهدف الأساسي من إشادة "مختبر سيرن"، في أيلول من عام 1954، محاكاة حالة الانفجار العظيم الذي حصل في بدء الزّمن، لاستجلاء كنه العناصر الأوليَّة، التي شكلت، في البدء، الحساء الكوني، الذي وجد لحظة الانفجار العظيم، ونتج عنه كوننا، والأكوان الموازية الأخرى.

ويعمل في مختبر "سيرن" أكثر من عشرة آلاف عالم وفيزيائي من خيرة العلماء، من شتى بقاع الأرض.

في نهاية محاضرتها، وبعدما أجابت على تساؤلاتهم، شكرت الدكتورة كوثر طلابها، ثم غادرت القاعة.

كانت كوثر الأسمر صبية سمراء، ممشوقة القد والقوام، نشأت في عائلة والدها رشيد الأسمر، وعرف عنها قوة الشّخصيّة، وعلو الهمة، فإذا أرادت أمراً اقتنعت به، سعت إلى تحقيقه بكل قواها، حتى تنجح، مهما اعترض سبيلها من عقبات.

إضافة إلى ذلك كانت كوثر الأسمر على قدر كبير من الجاذبية والفتنة، فعيناها السوداوان تشعان ذكاء، وشعرها الأسود الفاحم الطويل، يضفي عليها مظهراً

أنثوياً مثيراً. وقد حازت على شهادة الدكتوراه في الفيزياء الحديثة من جامعة "ميشغان" في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي لم تتجاوز بعد عامها الخامس والعشرين.

وبهمتها العالية وروحها الوثابة، واطلاعها الواسع على مختلف الثقافات والعلوم، أحرزت مكانتها المرموقة في سلك التعليم الجامعي. وكان لتخصصها في الفيزياء الحديثة ما حفزّها على متابعة أحدث التطورات والاكتشافات العلمية، فيما يتعلق ببنية وسلوك المادة على المستوى دون الذري، كما وضعت الدكتورة كوثر في مركز اهتماماتها، متابعة الانعكاسات الفلسفيّة، المُصاحبة لتلك الاكتشافات العلميّة، في إطار ميكانيكا الكَم، فباتت قناعاتها تترسخ أكثر فأكثر، بأن ميكانيكا الكَم، تبشر بثورة نوعيّة، ليس فقط على كل تقاليد الفيزياء الكلاسيكية وحسب، بل وعلى مُجمل المفاهيم الفكريّة والفلسفيَّة، في عالمنا المُعاصر.

اختارت كوثر الأسمر مدينة دمشق مقراً لإقامتها الدّائمة، إذ لم تنسجم وحياة الرِّيف، فكانت تضيق ذرعاً بالأعراف والتقاليد المُحافظة الرتيبة.

وقد امتازت بجرأة وشجاعة نادرتين، فكانت تعيش على هواها، في شقتها الجميلة من حي باب توما الدمشقي المعروف.

في حين كانت تسافر لأيام معدودات، من كل عام، إلى بلدتها مصياف، لتمضي وقتاً ممتعاً في مزرعة والدها رشيد الأسمر، فتستمتع بالطبيعة، وبأوقات مُسليّة برفقة البعض من صاحباتها، اللواتي تتقاسم معهنَّ العديد من الصفات، مثل حبّ الحياة، والانطلاق على السجيَّة.

(5)

سريعاً حل الحادي والعشرين من شهر نيسان لعام 2000 موعد طلب يد عفاف من أهلها، وكان ذلك المساء ربيعياً رائقاً، والهواء العليل يتسلل عبر نوافذ صالة المعيشة في منزل علي الراعي الذي ارتدى ثياباً رسمية، تليق بتلك المناسبة، وكذلك فعلت زوجته وفاء وبناتها الثلاث، سلمى ونسرين وعفاف، إضافة لابنهم البكر الوحيد علاء، إذ كانوا يتوقعون في كل لحظة، وصول أحمد الأسمر وأهله، فقد قاربت الساعة أن تشير إلى التاسعة مساء.

وما لبث أن رنَّ جرس الباب، فسارعت وفاء لاستقبال ضيوفها، مرحبة بقدومهم، ثم قادتهم إلى صالة المعيشة، حيث استقبلهم علي الراعي، بابتسامته المعهودة، ووقفته الرّسميّة الشَّامخة، ودعاهم إلى الجلوس، فجلسوا إلى الأرائك، وقد اختار رشيد الأسمر مكانه بالقرب من علي الراعي، بينما جلست زينب والدة أحمد الأسمر على يمين زوجها، فسارعت وفاء متوجهة إلى زينب تقول:

-أرحب بقدومكم...

ثم استأنفت حديثها وكأنها تداري ارتباكاً مفاجئاً ألم بها:

- الربيع يذكرني بربيع الحياة، حيث أيام الصبا والمدرسة واللهو، قبل أن أصبح عجوزاً، مقيدة إلى الواجبات والأعباء المنزليّة في الأسرة.

ابتسمت زينب، وهي تحاول أن تبدو لطيفة، أثناء ردها على وفاء، وقالت:

-ولكنك تبدين في أوج شبابك، وتألقك عزيزتي وفاء.

ومزهوة بالإطراء الجميل، قالت وفاء والابتسامة الآسرة تُغرّد على ثغرها البديع:

-أشكرك لهذا الإطراء الرائع عزيزتي زينب.

وأضافت، دون مناسبة:

- يبدو لي أن جيلنا، على النقيض من الجيل الحالي، كان أكثر التزاماً بالعادات والتقاليد المُتعارف عليها، فقد تربينا على تحمل المسؤوليّة، وأنَّ رأي الكبار يجب أن يُحترم، من غير أدنى اعتراض.

بينما الجيل الحالي، بات من السَّهل عليه أن يختار ما يُريده طبقاً لأهوائه، حتى لو بدت أهواؤه بعيدة عن المنطق.

فهذا الجيل بات يعتبر الأعراف والتقاليد قيوداً تنتقص من حريته، فراح يتمرد عليها، غير

مُكترثٍ بالعواقب التي يُمكن أن تترتب على سلوك طائش كهذا.

ارتشفت زينب الماء من كأس أمامها، ثم توجهت إلى وفاء تقول:

-نعم إنَّ ما تقولينه عزيزتي وفاء، صحيح تماماً، فقد أصبح للشبان، من كلا الجنسين، تقاليدهم الخاصة التي اكتسبوها بأنفسهم، عبر تأثرهم بهذا الزّخم من الاختلاط الافتراضي، عبر شبكات التواصل الاجتماعي.
ونتيجة لذلك، توسعت دائرة معارفهم، حتى باتت تشمل، من لا يعلمون عنهم شيئاً، من الأجانب، من شتى الملل والنحل، فبات تمثلهم لأنماط الحياة الغربية يُنذر بالخطر، ويشكل انزياحاً واضحاً عن عاداتنا وتقاليدنا الأصيلة، وأعتقد أن هذا ينذر بالأسوأ على المدى البعيد.
كانت وفاء لتوها قد أمرت بتقديم القهوة إلى ضيوفها، وبعدما تناول علي الراعي رشفة من فنجان قهوته، قال:

-اسمحوا لي أن أُخالفكم الرأي، فأنا مع هذا الجيل الجديد، وأعول عليه لنهضتنا، التي لا محالة قادمة، وأؤكد أن الجيل الجديد بات يمتلك من المعلومات، في سنة واحدة، ما كان يلزمنا عمراً

كاملاً لامتلاكه، وهذه ميزة، ذات أهميَّة عظيمة، تُحسب لهم.

امتعضت زينب من هذا الرّد، الذي وشى بإدانة صريحة لها، وهي المربيَّة التي كانت تعمل في حقل التعليم الابتدائي، منذ أكثر من ثلاثين عاماً، فقالت:

- ربما لا أوافقك الرأي أستاذ علي، فمن خلال تجربتي كمُربيَّة، أجد أن هذا الجيل، بات من السهل عليه الحصول على المعلومات، عبر الفضاء الإلكتروني، دون أن يبذل جهداً يذكر، نعم هذا صحيح. ولكنَّ الكثير من الانحرافات والشذوذات، راحت تتفشى بين صفوفه، بسبب هذه الوسائط ذاتها، التي بات من الصَّعب السيطرة عليها، أو مُحاربتها.

تناول علي الراعي رشفة من فنجان قهوته، ثم قال:

-بغض النَّظر عن المُسوغات، علينا أن نعترف بأنَّه لا يمكننا أن نتقدم خطوة واحدة نحو الأمام، في عصر مُتغير، على هذا النحو المُذهل، الذي نعيش وقائعه المُتسارعة، دون أن نكون منفتحين على العالم، بكل ما فيه من ثقافات وعادات، وتقاليد، ربما لا نستسيغها أحياناً، ولكنَّها تقاليد لشعوب تشبهنا، ويجدر بنا، إذا كنَّا مؤمنين بالتنوع، الاعتراف بها واحترامها، دون أن تنتابنا

نحوها أية مخاوف، أو هواجس، أجدها غير مشروعة.

تناول رشفة من الماء، ثم تابع علي الراعي حديثه، قائلاً:

-لقد بات لزاماً علينا أن نَهضم تلك الثقافات، التي تبدو، لبعضنا غريبة، لمجرَّد كونها غربيّة. لا بل بات من الضروري الاستفادة من تلك الثقافات، ومن السبق الحضاري الذي أحرزته الحضارة والحداثة الأوربية، بإلغاء القيود على العقل، وهذا بالضّبط ما بات يُدركه الجيل الجديد، الذي نوجه إليه سهام نقدنا، بذهنية ماضوية، مثقلة بالقيود، التي عفا عليها الزَّمن. فهؤلاء الشُّبان والشَّابات قد سئموا التربية الصّارمة، المُقيدة لكلِّ تفكير إبداعي، فتمردوا عليها، وهذا ما لم نعتد عليه. فإذا شئنا الحق والحقيقة، فقد بات علينا واجب استيعاب الأجيال الجديدة، عبر مجاراتهم بكلّ النواحي المعرفيَّة التي راحوا يتفوقون فيها، كتكنولوجيا المعلومات والاتصال. هذا إذا شئنا ألا نبدو مجرَّد مراقبين بحالة ساكنة، بينما الواقع يتحرك بسرعة البرق.

ارتشفت زينب القهوة ثم قالت:

- اسمح لي أستاذ علي فأنا، مع تقديري لكل ما تقوله، عن الانفتاح على الثقافات الأخرى، فإنني أرغب في مُعارضة الانحرافات الشّاذة، التي جلبتها تلك الثقافات الوافدة عبر وسائط التواصل الاجتماعي، وأنت بالتأكيد تعلم ما أقصده هنا بالشذوذ.

ابتسم علي الراعي، وبعدما ارتشف قليلاً من القهوة، قال:

- بالنسبة للانحراف، والشذوذ الجنسي، الذي تُلمحين إليه، فهو ليس مُنتجاً دخيلاً على الشَّرق، فقد كان موجوداً في كلِّ الجماعات البشريّة، على مرّ التَّاريخ، من حضارة وادي الرافدين في بابل، إلى حضارة المجتمع الإغريقي، المغرقتين في القدم، ولم تخل منه أية مجتمعات أخرى، بما فيها مجتمعاتنا الشّرقيَّة. إنما الفارق هو أن الحداثة الغربيّة، بفعل تجربتها الديمقراطيَّة، كانت أكثر شجاعة وعقلانية، وثقة بالنفس، لتُظهر تلك الانحرافات إلى العلن بكل جرأة وحريّة، بينما لدينا، تحصل تلك الانحرافات ذاتها، ولكن في وسط محاط بالتكتم والسريَّة، مما يفاقم أمرها أكثر فأكثر. وعلى خلاف كل الآراء أجد أنَّ السبيل الوحيد للحدّ من حصول تلك الانحرافات، في مجتمعاتنا، ليس في الحد من وسائل التواصل

الاجتماعي، وإنما يكمن الحل الحقيقي، في توفير فُرص العمل المُناسبة للجيل الجديد كلٍّ حسب مؤهلاته، لأنَّ البطالة هي أم الفساد، والفاسدين، وسبب الانحدار الأخلاقي، والقيمي.

كانت وفاء تُصغي، بانتباه حذر، إلى الحديث الليبرالي المُعتاد لزوجها، ولكنها إذ وجدت أن حديث كهذا قد يفضي إلى خلاف، لا يمكن تداركه، رمقت زوجها بابتسامة ماكرة، وقالت:

- حبيبي: على العموم أنا غير متفائلة بهذا الصدد، وفي حوار كهذا من السّهل أن تتشعب الآراء، بما يؤدي إلى تباينات حادة، أظن أننا الآن بغنى عنها، في حين يجب أن ينصب اهتمامنا على الغاية التي جاء من أجلها ضيوفنا، أليس كذلك يا عزيزي.

رد علي الراعي بابتسامة باهتة:

- أوافقك الرأي يا عزيزتي.

بدت وفاء، بمداخلتها الذكيَّة، كأنها تأذن لضيوفها أن يتحدثوا بالغرض الذي جاءوا من أجله، فتنحنح رشيد الأسمر، الذي كان مراقباً صامتاً أثناء الحوار، وبعدما حمد الله حمداً كثيراً، وصلى وأثنى على رسوله الكريم، وأصحابه أجمعين، قال بتهذيب واضح:

-أؤيد كلامكِ تماماً سيدة وفاء.

وبعدما ارتشف القهوة من فنجانه، توجه بناظريه إلى علي الراعي، وتابع يقول:

-أما نحن فقد جئنا إليكم طالبين القرب منكم بكريمتكم عفاف لابننا أحمد، على سُنَّة الله ورسوله الكريم، وكلنا أمل ألا نعود خائبين، وأنتم أهل الجود والكرم، فماذا تقولون؟

استوى علي الراعي في جلسته، وتقدم بصدره إلى الأمام، بحيث بدا ظاهراً للجميع، وبعد أن تناول كأس الماء، فأخذ رشفة منه تنحنح، وقال:

-على الرَّحب والسِّعة، فإذا شئنا ألا نكون تقليديين، وعلى ما اعتدت أنا عليه من صراحة ووضوح، فإنني أعلمكم أن هذا الأمر قد بلغني سابقا من خلال زوجتي العزيزة وفاء، التي قامت بدورها باستشارة عفاف، وقد تمت الموافقة على الخطبة، فلنبارك ذلك معاً، ولكن قبل قراءة الفاتحة، ثمة ما يجب الاتفاق عليه، فيما يتعلق بالترتيبات.

وبعد مداولات استغرقت حوالي السّاعة، تم تحديد مقدم الصداق ومؤخره، وبرنامج حفل الزفاف، والمصاغ المطلوب والفرش اللازم. ثم انتقلوا إلى قراءة الفاتحة.

وبذلك باتت عفاف خطيبة رسمية لأحمد الأسمر، مما جعلها تنقبض، فتبدو في غاية التشاؤم، وصارت

تبذل جهداً مضاعفاً، للحفاظ على هدوئها، بحيث لا تبدي للآخرين شعورها بالألم.
وبعدما بارك الجميع للعريسين بالاحتضان والقبلات، التفتت وفاء إلى عفاف، وقد خمنت بغريزتها ما يعتلج في صدرها، فطلبت اليها، وهي تبدي ابتسامة مُرتبكة، تقديم شراب التوت إلى ضيوفها، فقالت عفاف بصوت كاد يختنق:

- حاضر ماما.

ثم مضت متثاقلة إلى المطبخ، وحينما باتت منفردة بحالها، شرعت في بكاء صامت مرير، وهي تعدّ الشراب لمن صاروا رسمياً بمثابة أهل لها، وستنتقل اليهم، ولو بعد حين، متناسية أمر حبها الكبير الغالي، وكأنه لم يكن.

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة قبيل منتصف الليل حينما استأذن الضيوف للانصراف، بعدما حددوا موعداً للزفاف في عطلة الصيف القادم.

(6)

تفقد سمير الآغا حدود مزرعته بفرحٍ غامر، إذ باتت موطنهُ ومورد رزقه الوحيد، فلم تُفلحِ كلّ جهوده في تأمين فرصةً للعمل في قطاع الدَّولة، فقد كان والده غسَّان الأغا، رحمه الله، شيوعياً، وقد حلَّت لعنته السِّياسيَّة على عائلتهم بكاملها.

ولكنَّ ذلك لم يُفلح في إحباطهِ، أو النيل من عزيمته، إذ وجد في الأرض، التي ورثها عن المرحوم والده، ملاذاً آمناً، فحقق من خلالها حُلمه، الذي طالما راوده، منذ أن كان طالباً في كلية الهندسة الزراعيَّة، بمنزل ريفي بسيط، يتوسط مزرعة للأشجار المُثمرة.

فقام بتسييج مزرعته، من جهاتها الأربع، بنباتات السِّياج، وأحاطها بأشجار الصنوبر كمصدات للرِّياح، ثمَّ غرس داخل ذلك السور، شتى أنواع الأشجار المُثمرة من التفاح والإجاص واللوز والتين والزيتون والكرمة والرّمان، وجعل له بيتاً ريفياً بسيطاً يتوسط مزرعته، مكوناً من غرفة واسعة للمعيشة، يفضي من داخلها، في الجهة الشَّرقيّة، بابٌ يؤدي إلى مُوزع ينفتح عليه حمَّام ومطبخ صغير، بينما على الجدار المُقابل، من الجهة الغربيّة، ثمَّة باب آخر، يؤدي إلى غرفة نومه، وقد وضع فيها سريراً عريضاً، وطاولة للكتابة خلفها كرسي أنيق،

بالإضافة إلى مكتبتين جداريتين متقابلتين، اتسعت إحداهما لكتب الاختصاص في الهندسة الزراعية، بينما ضمّت المكتبة الأخرى الكتب التي ورثها عن والده، من المُؤلفات الكاملة لكارل ماركس، وفريدريك إنجلز، ولينين، إلى المؤلفات الكاملة للمُفكر الماركسي العبقري جورجي بليخانوف، بالإضافة إلى كتب الأدب الرُّوسي في القرن التاسع عشر، ومؤلفات الأدب السوفيتي.

وأمام المَدخل، ثمَّة ترَّاس طويل، تغطيه مَظلَّة من البيتون المُسلّح، بارزة عن السّقف، بمقدار مترين، ومحمولة على أعمدة مُستديرة، تعلوها تيجان مُضلعة تزينها زخارفٌ نباتيّة، وقد امتدت على طول الواجهة الجنوبية للمسكن.

وبالتعامد مع ذلك الترَّاس، حتى عمق متر واحد، باتجاه الجنوب، ثمَّة سياج من الورود مختلفة الأشكال والألوان، وخلف ذلك السِّياج مباشرة، بالعمق ذاته، تشكيلة جميلة من نباتات السياج دائمة الخضرة، ويتخلل السياجين عند النهايتين، بوابتان متقابلتان تعلوهما أقواسٌ قوطيَّة، مصنوعة من خشب السنديان، وتربط بينهما أواصف خشبية أفقيَّة رشيقة، متباعدة بمسافات منتظمة، لتظلل، وقد عرش عليها الياسمين، ممراً رائعاً يفضي إلى التراس الذي يتوسطه المدخل إلى غرفة المعيشة.

كان ذلك، الترتيب المُتقن، يُعطي لزواره انطباعاً جميلا، مما يبعث في روح سمير سعادة غامرة.

وفي ساعات المَساء الأولى، إثر فراغه من العَملِ، كانت تداهمه الذكريات، فيفكر بالحياة الثريَّة، التي كان يمكن أن تضفيها على هذه الطبيعة، بتألقها ونضارتها وتوهج روحها، عفاف الراعي، فالحبّ، الذي عاشاه معاً، لم يكن يفارق خياله.

كان يُدرك أنَّ المزرعة، القريبة من مزرعته، تقع في ملكيَّة السيد رشيد الأسمر، ولا يفصله عنها سوى، بستان بسيط، لا يتجاوز عرضه العَشرة أمتار، ويقع في ملكيَّة الفلاح مُراد الحَسن، ومقسم آخر شاغر، بالعرض ذاته تقريباً، يملكه زياد القاسم.

ومع ذلك، فقد كان حريصاً على ألاّ يكون سبباً لأية متاعب لحبيبته عفاف، التي لا زال يعبدها، وشوقه لرؤيتها يتضاعف بمرور الأيام.

وفي يوم ربيعي صحو، من أواخر شهر آذار لعام 2010 اعتزم سمير الآغا القيام برحلة صيد بريَّة، فتنكب بندقيته، وألقى على خصره جعبة الذخيرة، وشبكة الطرائد، وشد على رأسه وشاحاً رمادياً، ومضى شرقاً يتعقَّب طيور السُّمَنِ والفرّي والدُّراج، فبدت له السهول الفسيحة، إذ تتخللها الهضاب والوِهاد، بساطاً مُتماوجاً أخضر، بغير نهايات،

ونباتات الصفير وشقائق النُعمان والقندريس، التي نبتت على نحو عشوائي، على تلك السهول الخضراء، لترسم لوحة ألوانٍ متداخلة بديعة، خصوصاً حين تراوغها أشعة شمس الصَّباح الباكر بأشعتها الذَّهبيَّة، فتترك في الذاكرة انطباعات بصريّة لا تُنسى.

توغل سمير شرقاً، إلى مسافة بعيدة عن مزرعتهِ، حتى بدا وكأن الطرائد كانت تستدرجه نحو هدف مجهول، وإذ اصطاد الكثير منها، وشدها إلى حلقات الزَّرد المُلقاة على خصره، قرر العودة إلى مزرعتهِ، فاتجه غرباً، ولكنّه فجأة لمحَ أرنباً برياً بالقرب من أجمَّة من الأعشاب الناميّة، وإذ لمحه الأرنب من بعيد، حاول التخفي، ولكنَّ سمير تتبعه، وهو يحني هامته نصف انحناءة، ويده اليُمنى قد استقرت قرب الزِّناد، بينما احتضن باليسرى ماسورة بندقيته، وراح يهرول بخطوات قصيرة، فيتعثر بالحجارة، ثم ينهض ويثابر تعقب طريدته، بينما الأرنب الماكر يُخاتل، مُحاولاً الاختباء خلف الأحجار والصخور، وأجمات الأعشاب النَّاميَّة في تلك البريّة الواسعة، فتتضاءل بينهما المسافة حيناً، وتزداد حيناً آخر.

بدا سمير راغباً في اصطياد ذلك الأرنب، مهما كلَّفه ذلك من عَناء، فمضى يتعقبه، وقد نسي نفسه تماماً، حتى اذا بلغ مسافة كافية للتسديد والرمي، خاتله

الأرنب، الذي كان قد تلطى خلف كتلةٍ صخرية، ومضى مسرعاً يجتاز سياجاً عريضاً من الأشجار المُثمرة، فتوارى خلف جذع رمادي لشجرة زيتون هرمة، ولكنَّ حركة أذنيه البارزتين، كانتا تشيران إلى مكان اختبائه، فمضى سمير من مَسافة بعيدة، يلتف حول ذلك الجذع، دون أن يُدركَ أنَّه قد صار في بستان من الأملاك الخاصة، فجثى على رُكبتيه، وهو يُصوب ماسورة بندقيته إلى قفا ذلك الأرنب.

ولكنَّه إذ لمح من طرفِ ناظرهِ، رجلاً يحمل بيده سبحة سوداء طويلة، ويعتمر كوفية بيضاء، ويرتدي كلَّابيَّة قصيرة من البوبلين الأبيض، وقد بات على مسافة خطوتين منه، ارتبك، إذ أدركَ أنَّ الرَّجل هو قريبه رشيد الأسمر، فمنعه ذلك من التركيز على طريدته، وحينما أطلق النار، راحت طلقته في الهواء، فهيأ ذلك للأرنب المسكين فرصته النادرة للنجاة، فولى يقفز هارباً، بينما صار رشيد الأسمر إلى جوار سمير الآغا، واضعاً يده الثخينة على كتفه، وهو يبتسم له مرحباً، ويقول مازحاً:

- أحسنت صُنعاً، إذ تركت للأرنب المسكين فرصته للنجاة.

لم يكن سمير مسروراً بذلك، ولكنَّه ابتسم، وأومأ برأسه مؤمناً على كلمات العم رشيد، ثم تبادلا العناق والمُجاملات المُعتادة، وبعد ذلك دعاه العجوز إلى

بستانه، فلبى سمير دعوته شاكراً، وفي سرهِ كان يشعر بالامتنان إلى القدر الذي ساق إليه ذلك الأرنب الرَّمادي، فصار الوسيلة، التي ستجعله يحظى، من جديد، برؤية حبيبته عفاف الراعي.

كان الصغير باسم الأسمر في العاشرة من عمره، بينما أخته باسمة، بالكاد كانت قد اجتازت عامها الثامن، أما والدتهما عفاف الراعي، فقد بلغت حينها عامها الثلاثين، فبدت في أوج نضارتها وتألقها، ونضجها الأنثوي البديع.

وإلى طاولة مُستطيلة واسعة على الشُرفة المُطلة على أشجار الزيتون، استقبلته عفاف الراعي مرحبة، فصافحها بارتباكٍ، بدا لها واضحاً، مما جعلها في حالة من الرِّضى، إذ شعرت بغريزتها الأنثويَّة أنَّه ما زال متعلقاً بحُبها، وفياً لعهده معها.

جلس سمير وعائلة رشيد الأسمر المكونة بالإضافة إلى العم رشيد وزوجته زينب، كنته عفاف الراعي وابنته كوثر الأسمر التي كانت في زيارتها الربيعية المعتادة لبستان والدها، وقد تعمدت عفاف أن تجلس مقابل سمير الآغا، مبدية ابتهاجها، بهذه المناسبة غير المتوقعة.

أما رشيد الأسمر فقد اتخذ له كرسياً وثيراً إلى جوار سمير، وبعدما طلب من ابنته كوثر تحضير أبريق الشّاي، قال مرحباً بضيفه:

- أهلا أستاذ سمير، لولا ذلك الأرنب المسكين، لما أتيحت لنا فرصة الجلوس معاً، على الرغم من صلة الرَّحم التي تربطنا.

كانت والدة رشيد الأسمر تنتمي إلى فرع من عائلة الآغا، مما جعل بينه وبين سمير صلة قُربى، وإن كانت بعيدة، فهي محل اعتبار كبير لدى أهل الريف.

بدا سمير للوهلة الأولى مُرتبكاً، فتردد قليلاً قبل أن يجيب، ولكنَّه بعدما تناول رشفة من كأس ماء وضعت أمامه، قال:

- في الواقع لا يمكن الإنكار أنَّ الأمر كما تقول يا عمَّاه، فقد أخذتنا الحياة بعيدا عن واجباتنا نحو الأهل والأقارب، ولكنِّي أجد أنَّه من دواعي سروري أن أكون الآن برفقتكم.

انتهت كوثر من إعداد إبريق الشّاي وتخميره، فأشار إليها رشيد أن تسكبَ منه للحاضرين، وتابع كلامه متوجهاً إلى سمير:

- دعني أثني عليكَ أنّكَ عالي الهِمَّة، فقد جعلت من أرضك الصغيرة مزرعةً ناجحةً، ومُتميزة

بأشجارها المُثمرة، وأني إذ أبارك جهودك، أتساءل: أليس من المفيد لو أنّك، إلى جانب عملك هذا، قد وجدت لك وظيفة في قطاع الدَّولة؟

في هذه الأثناء كانت كوثر قد صبَّت الشَّاي، وقدمت منه كأساً إلى سمير، فتناول رشفةً من الشاي، ثم أجاب:

- إنَّ ما تقوله، يا عمَّاه، هو الصواب عينه، ولكن ما الذي يُمكنني فعله إزاء حكومة رفضت قبولي في جميع وظائف الدَّولة، مما اضطرني إلى أن أجد في الأرض مورداً وحيداً لرزقي، يجنبني ذلّ العوز والحاجة.

قالت عفاف والفرح يشع من عينيها:

- أحياناً نكون غافلين عما لدينا من إمكانيات، حتى إذا اعترضتنا العثرات، وكادت تسد سبلنا إلى البقاء، وجدنا مخرجاً من حيث لم نكن نحتسب.

ثم تابعت، مستشهدة على رأيها، بآية من الذكر الحكيم:

- "ومن يتقِ الله يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب".

ابتسم رشيد لكنَّته التي استشهدت بآية من الذكر الحكيم، ثم تابع يقول:

- صدقت يا عفاف، نعم الرَّب كريم، ولطيف بعباده، والأرض سند مكين، إن أحسنَّا استثمارها، والله تعالى لا يُوصد باب رزق على عبده، إلا ليفتح له أبواباً أفضل من التي أوصدها، من حيث لا يحتسب.

ثمَّ توجه إلى سمير بالسؤال:

- ولكن لماذا رفضوا قبولك في وظائف الدَّولة؟

شوَّحَ سمير بيديه، تعبيراً عن استغرابه لهذا السؤال، ثم أجاب:

- لقد بات معلوماً، أنَّه منذ استلام قيادة الثَّورة، مقاليد السلطة في هذا البلد، أنَّهم شرعوا يستبعدون من القبول في وظائف الدَّولة، كلَّ من يعتقدون أن لهم انتماءات سياسيّة، أو فكريّة، تُخالف نهج حزب البعث الحاكم، وتهمتي لديهم، أنني شيوعي كوالدي.

تابع رشيد وعلامات الدَّهشة ترتسم على محياه:

- ولكن ربما أنتَ شيوعي كما كان المرحوم والدك؟

وبابتسامة باهتة ماكرة، تنكر سمير لانتمائه، وأجاب على نحو مُراوغ:

- كلَّا أنا لستُ منتمياً إلى الحزب الشّيوعي، ولكنني من النَّاحيّة الفكريّة، أميل إلى اعتناق الفلسفة الماركسيّة.

وباستغراب قال رشيد:

- هذا يعني أنَّك قد أصبحت مُلحداً؟

أجاب سمير بعدما أخذ رشفة من كأس الشَّاي:

-اعتناق الفلسفة الماركسيّة لا شأن له بقضية الإلحاد والإيمان. ولكن لنفرض جدلاً أنَّني مُلحدٌ، كما تقول، فإذا كان الإيمان يعني أن أؤمن بوجود قوة غيبيّة خارقة، خارج حدود هذه الطبيعة، فانا لا اعتقد بوجود قوة كهذه.

رد رشيد الأسمر مُستهجناً:

- قولك هذا يبدو ملتبساً على الفهم، فلا يمكن للطبيعة بنظامها المُحكم الدّقيق، أن تكون قد خلقت ذاتها بذاتها، هكذا بمحض الصدفة، دون إرادة خالق عظيم، تولى أمر خلقها، بالتأكيد.

وبعدما ارتشف الشَّاي بتلذذ، ردَّ سمير مبتسماً:

-الأكيد أن هذه الطبيعة موجودة منذ الأزل، وستستمر إلى الأبد، فهي ليست حادثة، وبالتالي لم يقم أحد من خارجها بخلقها، لأنه لو وجد مثل هذا الخالق، فمن الذي كان قد خلقه من قبل؟ وهكذا لن ننتهي من سلسلة أسئلة لا حصر لها، كهذه الأسئلة التي لا معنى لها. وبالرغم من ذلك فإن العلم الحديث لم يزل يبحث ويتحرى في عللِ هذا الوجود، وقد توصل إلى نظريات لم تزل تتأكد صحتها يوما إثر آخر، ففرضيّة الانفجار العظيم (البيغ بانغ) الذي حدث قبل حوالي أربعة عشر مليار سنة تُفسر كيف بدأ الزّمن والفضاء ثلاثي الأبعاد، الذي نعرفه، من نقطةٍ شديدة الكثافة والسخونة، قريبة مما يدعى الآن بالثقب الأسود. وقبل ذلك التاريخ لم يكن هنالك ما يمكن معرفته أو قياسه، بل ربما الذي كان هو مجرّد حالة افتراضيَّة من العَماء المُطلق، أو الجاذبيّة الفائقة.

شعر رشيد أنَّه قد التقط الثغرة التي يبحث عنها في حديث سمير فقال مُتحمساً:

- لنُسلّم جدلاً، بأن ذلك الانفجار العظيم قد حصل، فمن المؤكد أن الخالق هو الذي كان خلف حدوث ذلك الانفجار، أستند في ذلك إلى قوله تعالى: "أولم ير الذين كفروا أنَّ السماوات

والأرض كانتا رتقاً، ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي، أفلا يؤمنون"، ذلك هو نص الآية ثلاثون من سورة الأنبياء.

كاد سمير أن يُحبط من جواب رشيد، ولكنَّه ثابر يقول:

- اسمح لي يا عمَّاه، فمن الناحيَّة العلميَّة لا يوجد ما يؤكد وجهة نظرك، فالعلم لم يتمكن حتى هذه اللحظة من الاستدلال على وجود ذلك الخالق، الذي تُلَّمح إلى وجوده بمثل هذه السهولة، وحتى القوانين الفيزيائيّة المُتعارف عليها، إلى وقتنا الحالي، لا يمكنها أن تعملَ في اللَّحظة التي سبقت ذلك الانفجار العظيم، لأنَّه لا وجود للزّمن قبيل تلك اللّحظة الفارقة، وأعدك أنه لو تمكن العلم من إثبات وجود خالق لهذه الطبيعة، فستجدني أول المؤمنين به.

ارتشف رشيد الشّاي بهدوء، ثمَّ أجاب بعد قليل من الصمت:

- عليك أن تعلم أن ثمة معرفة حدسيَّة مصدرها القلب، لا يمكن للعلم المُجرَّد أن يُدركها، فخالق مُنزَّه عن التشبيه، ليس كمثله شيء، كيف يمكن للعلم أن يُدركه؟ أو يبرهن على وجوده، قل لي كيف؟

استرق سمير نظرة خاطفة إلى وجه عفاف، التي بدت مشدودة إلى حديثه مع عمها رشيد، ثم ردّ مبتسماً:

-ما أسهله من سبيل للسير مع القطيع، ولتعذرني، يا عماه، فليس ثمَّة مفردة أُخرى يمكنني استخدامها، للتعبير عن هذه الحالة، فالتسليم دون براهين علميَّة قطعيَّة، إنما ينم عن جهلٍ بالأسباب ليس إلا، وما من مُبرر أجده مُقنعاً للتسليم بأمرٍ كهذا.

ثم ما حاجتي إلى افتراض وجود خالق لهذه الطبيعة؟ ألأعبده وحسب؟ هل هذه هي الغاية المَرجوة؟ بئس الغاية إذن، إن اقتصرت على ذلك. فخالق عظيم من المفترض أنّه يفوق كافة مخلوقاتهِ ذكاءً وعلما وحكمة، وفي الوقت ذاته ما خلقني إلا لأعبده! هل هذا مُقنع؟ وما حاجة خالق عظيم كهذا إلى عبادتي أنا الإنسان الصغير البائس؟

وبعدما ارتشف الماء، مُتحمساً قال رشيد:

-وما حاجتك أنت إلى الحقيقة العلميَّة، إذا كانت تلك الحقيقة ستقودك إلى الضلال والإلحاد؟
وهبك الخالق عقلاً، كي تتفكر في عجائب خلقه، وليس لتتنكر لوجوده، وما هذا الكون سوى كلمة

الله، كن فكان الخلق كلَّه، طبقا لمشيئته تعالى. وتقربك إلى الخالق، بالعبادة والطَّاعة، هو تعبير عن حاجتك إليه، فهو الذي يسند مساعيك في هذه الدنيا، وفي الآخرة يجزيك بجنته، لتكون فيها خالداً مُخلداً، فتنجو من عذاب النَّار التي أُعدت للكافرين.

شوح سمير بيديه مبتسماً، وقال في محاولة استعراضية لثقافته الماديَّة التي يعتدّ بها:

-لك أن تقول ما تشاء، من كلام إنشائي لن يفيدنا بشيء.

فأنا غير قانع بعذاب النَّار في الآخرة المزعومة، فمثل هذا الصَّغار لن يقوم به خالق عظيم، يمتلك وعياً لا متناهياً.

ولكن دعنا نسلك مسلكاً آخر في حوارنا يبتعد قليلاً عن فهم العامة، فلنعتمد على الحكمة إن شئت، دعني أشرح ذلك ببساطة:

منذ تفتح الوعي البشري تساءل الحُكماء الأوائل عن طبيعة المادة، وطبيعة الوعي، وعن العلاقة التي تربط بينهما، فتوصلوا إلى عرض المسألة الأساسية في الفلسفة، على شكل سؤال بسيط يقول:

أيهما الأسبق إلى الوجود، الوعي(الروح)، أم المادة(الطبيعة)؟

وقد انقسم الفلاسفة طبقاً لأجابتهم على هذا السؤال إلى معسكرين كبيرين:

الأول تكون من الذين قالوا بأسبقية الوعي في الوجود على الطبيعة، فأُطلق عليهم تسمية الفلاسفة المثاليون.

أما المعسكر الثاني فقد تكون من الذين قالوا بأن المادة(الطبيعة) سبقت الوعي (الروح) إلى الوجود، ثمَّ في مراحل متقدمة جداً من تطور المادة، تكون الوعي كأرقى خاصية للمادة، فأطلق على هؤلاء تسمية الفلاسفة الماديون.

والى جانب هذين المعسكرين الكبيرين، برز تيار فلسفي ثالث، أقر بالبدايتين معاً، فالوعي والمادة، برأي هؤلاء، وجدا معاً بالتزامن، وسمي هذا التيار بالثنائية الفلسفية.

وأنا كماركسي، أعتنق الفلسفة الماديَّة، أعتقد أنَّه من غير الممكن تصديق، أن هذه الطبيعة قد حدثت، طبقاً لوعي سابق لوجودها، فكأننا والحالة كذلك، نتحدث عن "ابتسامة لقط مختف"، وهذا بالطبع أمر مثير للسخرية.

كانت الدكتورة كوثر الأسمر تتابع حوارهما باهتمام بالغ، ولم تُخفِ إعجابها بشخصية سمير، وثقافته العاليَّة، ولكن دون أن تُشارك في الحوار، إلى أن وجدت، في تلك اللحظة بالذَّات، أنَّ حديثهما قد بات يتطرق إلى محاور مُهمة، من صُلب اختصاصها في الفيزياء الحديثة، فقالت:

-اسمح لي أستاذ سمير أن أبدي وجهة نظر الفيزياء الحديثة بما تقوله عن الفلسفة الماديَّة، التي تُفاخر باعتناقها، وأن أنبئك بأنَّ مستقبل هذه الفلسفة بات محل تساؤل، فهي تواجه الآن تحديات غير مسبوقة، لأن الفيزياء الحديثة، متمثلة بميكانيكا الكَم، وجهت إليها ضربة، أعتقد أنها قاصمة لظهرها، إذ بات السلوك الواعي للمادة، منذ لحظة وجودها، موضع تأكيد بالتجارب العلمية.

نظر سمير باستغراب إلى الدكتورة كوثر الأسمر، وقال متسائلاً:

-هل لك أن توضحي ما المقصود بأن الفيزياء الحديثة قد وجهت ضربة قاصمة إلى ظهر الفلسفة الماديَّة؟

قالت كوثر بعدما ارتشفت الشّاي من كوبِها:

-على الرحب والسعة، لتصغِ إذن إلى ما سأقوله: لقد تبين بالتجربة أن الإلكترون، الذي يشكل جسيماً أساسياً في بنية أية ذرة من ذرات المادة، يسلك سلوكاً ينم عن وعيه بما يحيط به من ظروف، فهو يتصرف كما لو كان موجة، حينما يكون بعيداً عن مراقبتنا، بينما يتصرف كجسيم مادي، حالما نبدأ بمراقبته.

هذا يعني بأنَّ المادة منذ أن وجدت كانت تسلك سلوكاً واعياً لأهدافها، وبالتالي فالإجابة على السؤال الأساسي في الفلسفة، باتت على النحو التالي:

الوجود والوعي والحركة، صفات متزامنة في المادة منذ لحظة نشوئها.

والمقولة الماديَّة بأسبقية، الوجود المادي، على الوعي، صارت من ضلالات الماضي.

بدا الارتباك واضحاً على سمير وهو يجيب:

-يستحيل أن تمتلك المادة البسيطة، كالإلكترون، وعياً، فبغير عضو الوعي المعقد التركيب، المعروف بالدِّماغ، لا يمكن للوعي أن يوجد.

ابتسمت كوثر الأسمر بعذوبة، وبعدما لمحت نظرة الإعجاب التي رمقها بها والدها رشيد، تابعت تقول:

-لكن ما أقوله الآن بات مثبتاً بالتجارب العلمية، وهذا الأمر يُشكل الأساس المكين للثورة العلمية التكنولوجية التي نتمتع بها الآن، من أجهزة التلفاز إلى الهواتف المحمولة، إلى الكمبيوترات الكمية فائقة السرعة، التي باتت في طور إعداد البرمجيات المتقدمة لها، وغيرها من المنجزات العلمية.

تلعثم سمير الذي بدا أكثر ارتباكاً، وقال:

- لا بدَّ أن ثمَّة شيء ما يجري على نحو خاطئ، وأكاد أجزم بأنَّ ثمَّة مؤامرة إمبريالية تحاك خلف الأكمة، ضد الفلسفة الماديّة، فالماديّة الجدليّة لا يمكن دحضها، لأنَّها الفلسفة العلميّة الوحيدة، الأكثر قدرة على استيعاب كافة العلوم، ولا يمكن للعلوم أن تتناقض مع المنهج الفلسفي المادي الجدلي في فهم الطبيعة.

وبعذوبة ابتسمت كوثر الأسمر من جديد، إذ أدركت مدى سخف ادعاء نظرية المؤامرة، التي قال بها سمير لتوه، وقالت:

- ادعاء وجود مؤامرة، على سذاجته، لن يقدم، ولن يؤخر في الأمر شيئاً، بل على العكس فالجدل، او الديالكتيك بتعبير آخر، بحد ذاته، يتقبل منطق التطور ويستوعبه، شريطة ألا يؤطَّر

بجمود النظرة الماديَّة التي تؤكد، تعسفاً، على حتمية مقولاتها.

فقد ثبت أن الإلكترون عبارة عن موجة احتمالية، أي يمكن أن نفترض تواجده في أمكنة متعددة، في الوقت ذاته، حتى إذا أجرينا عليه عملية القياس(المراقبة)، اختفى من كل الأمكنة باستثناء المكان الذي توخينا تواجده فيه، أي أنَّه قد تحول في لحظة القياس، من موجة، إلى جسيم، أي تجسد في حالة مادية واحدة، لحظة قياسه، قد يبدو هذا غريباً، أو مخالفاً لأبسط قواعد المنطق السليم، ولكنه الحقيقة، التي ما فتئت، يوماً إثر يوم، تثبتها التجارب العلمية.

نستنتج من ذلك أنّ للمراقب الواعي تأثيره الحاسم في وجود المادة ذاتها، أي في وجود هذه الطبيعة بكل ما فيها.

فكل ما في الطبيعة إن هو سوى موجات احتمالية، هي بالاساس ليست ماديّة، إلى أن تتم مشاهدتها من قبل مُراقب واعٍ، فتتجسد، في تلك اللحظة بالذات، على نحو ماديٍ.

والأمر يبدو كما لو أننا نحن الذين نخلق عالمنا، ونحن الذين نجعل الطبيعة توجد بصورتها التي

تتبدى لنا، وبتعبير آخر: الوعي هو الذي يخلق الوجود المادي، وليس العكس.

وهنا يكمن المأزق الكبير للحتميّة الماديّة، فقد بات العَماء، أو بتعبير آخر العشوائية، أو نظرية الاحتمالات، من أبرز المؤثرات في خلق الواقع والمُستقبل، ولم يعد الكون كما بدا في ميكانيك نيوتن مُجرّد ساعة كونيَّة، ضبطَها الخالق لمرة واحدة، وتركها تسير بانتظام إلى غاية محددة، ومعلومة سلفاً.

بل عالم ينطوي على كل الاحتمالات المُمكن تَخيُلها، حتى يُلاحظها المراقب الواعي فتتجسد، على النحو المادي الذي نراه وحسب، بينما تتوارى كل الاحتمالات المتبقيَّة التي كانت متواجدة قبيل الملاحظة، في عوالم أُخرى لا يمكننا رؤيتها.

ومتقهقراً حاول سمير الانسحاب من الحوار، فقال:

- على العموم لن أحاول الاستمرار في حوار يبدو لي غير منطقي، وأعتقد أنه مُغرق في الخيال، وبعيدٌ عن الواقع.

كانت الدكتورة كوثر الأسمر، مدفوعة برغبة تعتمل عميقاً في ذاتها، مُصرَّة على استكمال شرحها للنظريات الحديثة في ميكانيكا الكم، فاستكملت تقول:

- إذن فالمنطق، كما تقول، هو الفيصل والحكم، فدعني أُدهشك أكثر، ثمَّة ظاهرة باتت معروفة، ولكنَّها ستبدو لك، أيضاً، غير منطقيَّة، تدعى ظاهرة "التشابك الكمي"، وهي ظاهرة أثبتها العلم، يقيناً، بالتجربة، تُبين أنَّه لو كان لدينا جسيمان دون ذريين، الكترونين مثلاً، من منبت واحد(يتبعان إلى ذرة واحدة)، ثم أرسلنا أحدهما إلى آخر الكون، بينما احتفظنا بالآخر لدينا هنا، فقد ثبت بالمطلق، أنَّه يمكنهما تبادل المعلومات آنياً، وكأنّه لا وجود للمسافة التي تفصل بينهما، أي أنهما يتواصلان في اللّحظة ذاتها، بما يفوق سرعة الضّوء بملايين المرات، أو بمعنى آخر إن تواصلهما يتم، كما لو كان، خارج إطار الزّمن!

ما أبغي توضيحه، من خلال ذلك، هو أن ميكانيكا الكم ستغير مفهومنا عن الطبيعة بشكل جذري، ولذلك فلا يمكننا الثبات على منهج فلسفي، أو أيديولوجي، يبدو ظاهرياً أنَّه مُستقر، فهذا هو الضلال ذاته، وبات من الواجب تنحيته.

فإذا شئنا نُصرة العقل والعلم، سنجد أنَّ الطبيعة قادرة على أن تُتحفنا، دائما، بما يثير دهشتنا، ويعيد ترتيب وتغيير قناعاتنا من جديد.

وبات علينا أن نتمتع بالشجاعة الكافيّة لأن نعيد النظر بهشاشة المنطق السَّائد.

فالتطور يتم عادة، بنفي الضلالات السَّابقة، التي كانت سائدة، ومسلماً بها كحقائق مُطلقة، وهذا الجانب بالذَّات، يتفق مع منهج الديالكتيك، الذي تعتنقه سيد سمير، ولكنه يختلف جذرياً مع حتميَّة، وأحادية الفلسفة الماديّة.

أجاب سمير وقد بدا واضحا تأثره، ودهشته بالمعلومات التي عرضتها الدكتورة كوثر الأسمر:

- من ناحيتي سأظل أعتقد ان العلوم كافة، قديمها وحديثها، ستستمر في إثبات وجهة النظر الماديّة الديالكتيكيَّة للكون.

قالت كوثر الأسمر والبسمة تعلو شفتيها:

- بل أؤكد لك ان فتوحات الفيزياء الكوانتية، ستحتم علينا تغيير مناهجنا في التفكير على نحو جذري، فليس لدينا الآن ما يمكن تسميته كوناً واحداً، بل أكوانا موازية لكوننا، غير منته عددها، وفي كل منها نسخ من كائنات كوننا جميعها، ولكنها تختلف من حيث احتمالات وجودها، فقد تكون مهندسا في كوننا بينما قد تكون طبيبا أو رئيسا لبلد ما في كون آخر مواز. وبالتالي فإن احتمال زوالنا غير ممكن، إنما نختفي في هذا الكون لتستمر نسخنا المحتملة الأخرى، في الأكوان الموازية.

وتلك فرضيَّة تعمل العلوم الفيزيائية الحديثة على التأكد من صحتها، لأنها نتجت، كتحصيل حاصل، عن الأفق الاحتمالي لفرضيات ميكانيكا الكم المعاصرة، وخصوصاً فرضية التراكب الكمي، حيث أنَّ اختفاء الإلكترون في حالة رصده من كافة الأماكن المُحتملة لتواجده، لا تعني سوى أمراً واحدا، هو استمرار وجوده، طبقا لكافة الاحتمالات المتبقية، في الأكوان الأخرى الموازية لكوننا.

وهذه الأكوان الموازيَّة، كفرضية، لم يتم التثبت من صحتها تماماً بعد، إلا أنها نتجت أيضاً، بطريق آخر، عن التحليل الرّياضي البحت، من خلال المعادلات التي تتنبأ بنظرية أخرى واعدة هي "نظرية الأوتار الفائقة"، أو "نظرية كل شيء". وإن في ذلك لدلالة، عظيمة الأهميَّة، على مصداقية افتراض الأكوان الموازيَّة لكوننا الذي نعيش فيه.

بدا سمير وكأنه ينسحب من الحوار الذي تحول إلى حديث تخصصي في الفيزياء الحديثة، يفوق طاقته، ولكنَّه دون أن يُخفي إعجابه بمعلومات الدكتورة كوثر الأسمر، وشخصيتها العلمية الجذابة، قال:

-يبدو لي أنه من المُفيد جداً التحدث إليك دكتورة كوثر، فقد تطرقت إلى أفكار مُثيرة، وتستحق

عظيم الاهتمام، وكلِّي أمل أن يكون لنا لقاء آخر نتحدث فيه بإسهاب حول كلّ ذلك.

أبدت كوثر موافقتها من خلال ابتسامتها الآسرة، التي ارتسمت على محياها، وقالت:

- أتفق معك على ضرورة الحوار، بهدف تعميق معرفتنا عن الطبيعة، فهذا لعمري هدف جيد، واشكر لك ثقتك بي.

تريث سمير للحظات، ثم قال متوجها إلى كوثر:

-لعل من المفيد أن نتبادل أرقام جوالينا.

ودون اية تحفظات، أعطت كوثر رقم جوالها لسمير، الذي بادرها أيضاً بتزويدها برقم جواله.

كانت عفاف الراعي تتآكلها نار الغيرة من مشاركة كوثر الأسمر في الحوار مع سمير الآغا، على هذا النحو المُثير، وبعدما عيل صبرها، انصرفت لاستكمال إعداد طعام الغداء، وقد أصرَّ رشيد الأسمر أن يمكث سمير معهم لتناول طعام الغداء، فلم يعترض سمير على ذلك.

وخلال انشغالهم بالترتيبات، استأذنهم سمير للحظات، لأجل قضاء حاجته، فتمكن بذلك من أن يمرر إلى عفاف الرقم الخاص لجواله، حينما التقاها

في المَمرِ المؤدي إلى المُنتفعات، ثم عاد إلى الجلسة، مرتبكاً بعض الشيء، فقال ليُداري ارتباكه:

- فيما يتعلق بجوهر حوارنا سيد رشيد، تذكرت لتوي أمراً مُهماً، فلو عدنا إلى فكرة الإله ذاتها، لوجدنا أن العقل البشري هو الذي ابتدعها، فما الانتقال من العبادة الطوطمية، المتمثلة بعبادة الأسلاف، إلى الدِّيانات التوحيديَّة سوى تطوير لتلك العبادات البدائيَّة، وقد كان الدافع إلى ذلك ذُعر الجماعات البشرية البدائية من حالة الموت، التي اعتبروها موتاً للجسد فحسب، بينما الروح تستمر في حياتها الخاصة، قريبة منهم، فتراودهم في أحلامهم، وتؤثر في حياتهم سلباً أو إيجاباً.

مما جعلهم يعبدون تلك الأرواح، ويتوهمون تقمصها في أشكال حيوانية، أو نباتية، سموها الطواطم، التي تمثل عادة، روح الجدّ الأول للقبيلة. فباتوا يقدمون لها القرابين، طامحين من خلال ذلك إلى جلب الخير، أو دفع الشرور التي اعتقدوها تتربص بهم، من قبل تلك الأرواح.

فالتدّين، الذي نختلف فيه الآن، لم يزل الدافع اليه هو ذاته، الذعر من الموت، ذلك لأن مشكلة الموت لم تزل لغزاً مُحيراً، إذ لم يعد أحد، قد مات سابقاً، إلى الحياة مجدداً، لنعلم منه عن

أسرار ما بعد الموت، إذن فالإله، بالأساس، هو صناعة بشرية.

ابتسم رشيد، وقال:

- الدين وحده القادر على درء الخوف من ظاهرة الموت، فقد وعد الخالق عباده الصالحين بجنات تجري من تحتها الأنهار، يحيون فيها خالدين إلى أبد الآبدين.

قال سمير هازئاً:

- ولكن الدِّين، في الغالب، كما بات متعارف عليه، كان ولم يزل، تجارة رابحة، يستخدمها السَّاسة لإخضاع شعوبهم، بينما يستثمرها من يُسمون رجال دين، كمهنةٍ يتكسبون من خلالها المال والجاه، أو في سبيل الترويج لتجارة يعملون فيها.

قال رشيد:

- أثبتت كل التجارب بأن الإنسان لم يزل عاجزاً عن قيادة نفسه في الحياة، فالإنسان لم يُخلق ليكون كاملاً، فالكمال لله وحده.

وما عبادة الطبيعة، سوى نوع من التنكر للخالق العظيم، الذي أبدعها.

أما اتهامك لرجال الدِّين، فربما له بعض مسوغاته، بالنسبة للبعض منهم.

قال سمير الذي بدا مُتعباً:

- أتفق معك حول قصور الوَّعي عن الإحاطة بكل شيء، فحتى العلوم الطبيعية لم تزل قاصرة عن استجلاء كنه الوجود، وأسرار الطبيعة بالكامل، ولكن ذلك لا يعني ان نستسلم.

ثم اختتم سمير كلامه مستشهداً بقول من كتاب "النظرة الواحدية إلى التاريخ" لجورجي بليخانوف:

-"الفن طويل وحياتنا قصيرة".

في هذه الأثناء خرجت عفاف لتعلن أن طعامها قد بات جاهزاً، ودعتهم إلى طاولة الطعام، وخلال الغداء، حاولت عفاف أن توجه دفة الحديث إلى الوجهة التي تروق لها، فسألت سمير:

-أستاذ سمير أرجو المعذرة، فسؤالي يتطرق إلى خصوصية من خصوصياتك، أما آن لك أن تتزوج، وتكون أسرة؟

أمتقع لون سمير قليلاً، وقال على نحو مُراوغ:

-في الحقيقة ليس لدي جواب شافٍ على سؤالك، فذلك يتوقف على الظرف المُناسب.

قال رشيد:

- أمر كهذا يجب أن يعطى أولوية، فتكوين أسرة أمر لا بد منه لكل أمرئ مُدرك لدوره في هذه الحياة.

فقال سمير مبتسماً:

- بكل الأحوال أعدكَ ان أفكر بذلك على نحو جدي.

استمر سمرهم بعد تناول طعام الغداء حتى قاربت الشَّمس على المغيب، حينها استأذن سمير بالانصراف عائداً إلى مزرعته.

(7)

أَضرمت زيارة سمير الأغا، إلى بستان رشيد الأسمر، جذوة العِشق، من جديد، في قلب عفاف الراعي، بعدما كادت أن تنطفئ. وقد عزز ذلك الشُّعور لديها، أنَّ سمير لم يكن قد فكر بأمر زواجه بعد، فبدا لها بصورة العاشق المُتيم، الذي يُضحي بسعادتهِ، لأجل الوفاء بوعدهِ، الذي قطعه أمامها ذات يوم، بأن ينتظرها إلى الأبد، فبرَّ بقسمهِ، مما جعلها تنظر إليه كقديس انقطع عن العالم كلّه لعبادتها كإله. فصارت على لهفة للقائه على انفراد، للوقوف على أحواله عن كثب، وقد تمكنت، في اليوم ذاته، من إرسال رسالة نصيَّة إليه، عبر الواتس أب، قالت فيها:

عزيزي سمير

سررت اليوم كثيراً، أنني كنت بالقرب منكَ، بعد زمن الفراق، اطمئن فأنا لا زلت على وفائي لحبَّنا.

تذكرني دائماً

عفاف الراعي

فأرسل سمير، رده عاجلاً، عبر رسالة قصيرة، قال فيها:

حبي الأبدي عفاف

سأظل أنتظرك، ولو بقيت دهراً، وبي لهفة لعناقك، بعد هذا الغياب.

فما كان من عفاف إلا وأرسلت إليه، ردها المُؤثر:

حبيبي سمير

سنوات مرت، وأنا أتعذب لأجلك، فلم أبذل حبي، ولن أبذله لسواك، وما كان زواجي المشؤوم إلا هروباً إلى الأمام، في مواجهة تعنت والدتي الذي عانينا منه سوياً، وقادنا إلى المأساة التي لم نزل نحيا فصولها.

أنا الآن في غاية التَّعاسة، وزواجي الفاشل لن يستمر طويلاً، فأحمد الأسمر شخص سيكوباتي[7] شرير، حتى أنني بت أخشى منهُ على حياتي.

ملاحظة: سأترقب أول فرصة سانحة، لأجل القدوم إليك في مزرعتك، لا تهتم، سأبلغك بمجيئي قبل يوم منه.

احبك سمير

الوفية عفاف الراعي

شكلت تلك الرَّسائل جسراً، وصل ما انقطع من علاقتهما، فبات سمير يترقب قدوم عفاف إليه،

ويمني النفس بسعادة وجوده، على انفراد، بقرب معبودته.

كان سمير قد اعتاد أن ينهضَ في الرَّابعة فجراً، ليعتني بأشجاره ونباتاته، ثمَّ يستمتع بكأس من المتة إلى جوار سور الوّرد المُحيط بمسكنه، ثم يمضي سيراً على قدميه، ليتفقد حدود مزرعته، وفي كل مرة كان يقترب فيها من حدود البستان المجاور لبستان رشيد الأسمر، كانت تنتابه اللَّهفة والشوق، لأن يتجاوز كل العقبات ليلتقي حبيبته عفاف، ويضمها إلى صدره، كسابق عهده قبيل زواجها.

وفي اليوم الفائت كان قد غامر بأرسال رسالة إلى عفاف، عبر الواتس أب قال فيها:

حبيبتي عفاف

انتظريني غدا، في الرّابعة صباحاً، تحت شجرة الزيتون العتيقة، في مزرعة رشيد.

سمير

لم ترد عفاف على رسالته تلك، ولكنَّها في الموعد المُحدَّد، وبجرأة انطوت على مُغامرة غير محسوبة العواقب، تسللت خلسة إلى سور مزرعة عمَّها رشيد، فكانت، على موعدها، تحت شجرة الزَّيتون العتيقة، فسارع سمير إلى احتضانها بلهفة، وقال:

-عفاف يا حبيبتي، رهنت حياتي لأجلك، ومرّ زمن طويل، وأنا أشتهي ضمك إلى صدري.

تنهدت عفاف وهي تخفي رأسها الصغير في صدره وراحت تنشج باكية، وتقول:

- إنَّها لعنة قد حلت بي، فجعلتني أعيش حالة من العذاب والاغتراب، لا يمكن لمخلوق، على وجه هذه البسيطة، أن يتحملها، نتيجة زواجي الفاشل، ولن تنجلي هذه الغُمامة الدَّاكنة، إلا بعودتي، من جديد، إلى حضنك الدافئ الحنون.

طبع سمير قبلة على جبينها، وقال:

- سأظل أنتظرك، فحبنا لا بد أن يتغلب على كل العقبات، التي حالت بيني وبينك.

تنهدت عفاف، وقالت:

- لم أكن يوماً إلا لك، ولا أفكر إلا بك، فأنت من وهبتك حياتي، ومَحضتك حبِّي.

تدحرجت دمعتان من مقلتي سمير فمسحتهما عفاف بأناملها الغضة، فقال سمير بصوت مُحشرج:

- أعبدك عفاف، ولا أطيق الابتعاد عنك، بعدما التقيتك من جديد.

وبابتسامة تنم عن الأسى، والأمل معاً، قالت عفاف:

- انتظر قدومي إليك صباح غدٍ الجمعة.

كان سمير في ذروة الانتشاء، وهو يقبل عينيها، ويقول متمتماً:

- سأنتظرك يا معبودتي الصغيرة، وكلي لهفة للقائك.

شبكت ذراعيها حول عنقه، وقبلته مودعة، ثمَّ تسللت بخفة، عبر السِّياج، فوصلت إلى مسكن المزرعة، قبيل الخامسة صباحاً، حيث موعد استيقاظ عمها رشيد، فتسللت بهدوء إلى غرفتها، ثمَّ تمددت على سريرها، وراحت تحلم بلقاء الغد المُرتقب.

وفي صباح يوم الجمعة كانت قد رتبت كل شيء بحذر شديد، وإذ بات من المُعتاد ذهاب عمَّها رشيد الأسمر إلى الصلاة، حوالي الحادية عشرة صباحاً، بصفته إماماً لمسجد المدينة، كما أنَّه قد اعتاد، إثر ذلك، أن يُمضي وقتاً طويلاً يزور فيه أقاربه ومعارفهِ، في المدينة، فلا يعود إلى مزرعتهِ إلَّا مع حلول الساعات الاولى للمساء.

وبينما كان رشيد الأسمر يطأ بقدميهِ عتبة مسجد المدينة، كانت عفاف، التي اجتازت سياج الورد، في مزرعة سمير الأغا، تنقر بأصابعها الغضة على باب مسكنهِ، فتلقاها سمير بعناق حار، واختطف المزيد من القبل، من خديها الموردين خفراً، دون أن تمانع

في ذلك، ولكنه حينما أراد الغوص عميقاً في شفتيها، تجنبت فرط الإثارة، فأبدت ممانعة خجولة، ودفعته برفق بيديها الملائكيتين، وطلبت إليه أن يعد كوبين من القهوة، معلنة، بصراحتها المعهودة، أنها راغبة بالتحدث إليه، فامتثل لرغبتها طائعاً، وغاب في مطبخه، ليعود وكوبين من القهوة بين يديه وهو يقول:

- هل أنت مقتنعة بالصَّد الذي أبديتهِ للتو نحوي؟

أطرقت عفاف برأسها نحو الأرض وقالت:

- مهما يكن من أمر، فأنا طالما لا زلت مرتبطة، أمام الله، بعهد زواجي، فلا يحق لي أن أخون عهدي.

قال سمير منفعلاً:

- لأنَّك حبيبتي، لك الحق في أن التزم بما ترتئين، على الرغم من عدم اقتناعي بذلك.

ردت عفاف وقد احمرت وجنتاها خجلاً:

- سيظل حبي لك يملأ قلبي، ويسند حياتي، فيجعلها جميلة، ولكن جسدي، لم يزل ملكاً للآخر، بموجب عهد قطعته على نفسي، أمام الخالق، حينما قبلت به زوجاً.

وبعد لحظات من الصَّمت قال سمير:

- لن أشاطرك الرأي، وقد كنت أعتقد أنّه يمكننا أن نمارس حبنا بحرية، طالما أنَّ الطرف الآخر لا يستحقك، ولا أحسبك كروح حيَّة، إلا منفصلة عنه، منذ البداية.

ارتشفت عفاف القهوة من كوبها، بصوت مسموع، ثم أجابت:

- لا ينبغي لك أن تغضبَ، دعنا نُجنب حبَّنا النَّقي ارتكاب الخطيئة، فهذا سيهبنا سعادة أكبر، بانتظار فرج قريب نرتجيه معاً.

واستدركت تقول:

-ولكن قبل أن أنسى: قل لي بصراحة لماذا لم تتزوج حتى الآن؟

أجابها سمير والغصّة بادية في صوته:

- لأنني عاهدتك أن أنتظرك، حتى آخر العمر.

أحمرت وجنتاها خفراً، ولكنها، إذ أرادت المراوغة قالت:

- ولكنني قد تزوجت؟

بدا على سمير أنّه يثأر لكرامته، حينما أجابها بقوله:

- إذا كان زواجي يريحك، فقريباً سأفعل.

امتعضت عفاف، لدى سماعها جوابه، الذي لم تكن تتوقعه، فشعرت كأن خنجراً أُغمد في فؤادها، ولكنها دارت على ذلك، وقالت بعدما ارتشفت من كوبها آخر رشفة من القهوة:

- اشعر بالإعياء، هل لي أن أستريح قليلاً على سريرك؟

قادها سمير إلى غرفة نومه، وبعدما هيأ لها سريره، قال لها:

- يمكنك أن ترتاحي، وسوف أغادر الغرفة، إذا كنت راغبة بذلك.

ردت عفاف بصوتها الأنثوي الرّقيق هامسة:
- كلا، بل يمكنك أن تستلقي بقربي.
أجابها سمير وقد أدرك، على نحو غامض، مرامها:
- أمرك حبيبتي.

خلعت خفيها، وارتمت على السّرير، فقام سمير باحتضانها، وأخذ يتنفس من شعرها، وعبق جسدها الطري عبير الحبّ، ما جعله يذوب شوقاً للاندماج بهذا الجسد الفاتن.

كانت عفاف في غاية الشوق إلى رجولة سمير، واحتضانه لها، فالتفتت اليه، وهمست:

- أعبدك سمير.

رد سمير بصوته الرجولي الدافئ:
- وأنا أعبدك عفاف.
ثمَّ التصق أكثر بجسدها الشَّهي، وراح يحرقها بأنفاسه المضطربة، فكانت ضربات قلبها، تشي بمدى رغبتها بممارسة الحبّ، ولكنَّها بصعوبة تمكنت من التغلب على تلك الرَّغبة، لتحافظ على كرامتها، التي لم تكن ترغب في أن تهدرها، لتحقيق نزوة عابرة.

فاستسلمت لتلك اللذة العارمة التي هيأها لها احتضانها من قبل حبيبها، وغرقا في نوم لذيذ، وحينما استيقظا، كانت الساعة تقارب الثانية بعد الظهر، فارتدت عفاف خفيها متأهبة للرحيل، فغاص سمير في ثغرها بقبلة وداع، فلم تمانعه، هذه المرة، ثمَّ قبل عينيها وجبينها، وتركها تتسلل عبر السياج راجعة إلى بستان رشيد الأسمر.

كان الوقت متأخراً، في ذلك المساء، حينما وصل رشيد الأسمر إلى بستانه عائداً من زياراته العائلية، فتلقته عفاف مُرَّحبة فرحة، وبعدما أعدت له طعام العشاء، غادرت كعادتها إلى غرفة نومها، وإذ كانت تستحضر، بمتعة، ذكرى لقائها مع سمير الآغا، والفرحة تغمر روحها، استسلمت لنوم لذيذ مفعم بالأحلام، ولا أحد، حتى عفاف ذاتها، كان يمكنه التنبؤ بما يحمله لها الغد القريب من مفاجئات مؤلمة.

(8)

كان سمير الآغا قد ترك ذكرى طيبة في أعماق كوثر الأسمر، فلم تتمكن من نسيانها، ولا تجاهلها، وحينما راحت تسترجع صورته في ذاكرتها، وجدت أنه يمتلك رجولة مُثيرة، وجاذبيَّة عاليّة، إضافة إلى ثقافته المُتميزة، عدا عن كونه على قدر لا يستهان به من الوسامة والظرافة.

فأخذت أفكارها منحىً جعلها تقرر أنَّه الرَّجل الذي يستحق أن يستأثر باهتمامها، خصوصاً وأنَّها تشعر بالحاجة العاطفيّة المُلحة لاحتضان رجل، يُمكنها أن تهواه بمجامع قلبها، فأمست وميل غريزي غامض الملامح، يراود كيانها، متشوقة للقاء قريب يجمعها به من جديد.

وبعد تفكير عميق، وجدت الحلّ في أن تلتقيه في أقرب فرصة مُمكنة، وعلى عادتها، اذا اتخذت قراراً، واقتنعت بصوابه، سارعت إلى تنفيذه، فتناولت جوالها، وكتبت له رسالة نصيّة جريئة، عبر الواتس أب، قالت فيها:

عزيزي سمير

اسمح لي أن ألج حالاً إلى لُبّ الموضوع، فقد سحرني لقائي بك، في مزرعة والدي، خلال شهر آذار الذي مضى، فوجدت في جاذبيّة

شخصيتك ما كنت أبحث عنه طوال حياتي. ربما تجمعنا قرابة بعيدة، حيث أنَّ جدتي لأبي من عائلتكم، ولكنني الآن، أشعر نحوك بقرابة من نوع آخر، قرابة تكتسب خصوصيتها، من إعجابي الشَّديد بالظرافة التي تتمتع بها، ووعيك الجميل.

هل لي أن أسألك لقاءً آخر، يُمكننا من خلاله توطيد صداقتنا أكثر.

المشتاقة كوثر الأسمر

في 4 نيسان لعام 2010م.

تلقى سمير رسالتها تلك، فأذهلته جُرأتها، وفي الوقت ذاته، تملكه الإعجاب الشديد بتلك الجرأة الأنثويَّة التي كان يُحبذها، بصفته رجلاً متحرراً من عقده الشرقيَّة، كما كان يعتقد. وضاعف من إعجابه بكوثر، كونها تمثل شخصية علمية مرموقة، وفكَّر للحظات، فوجد أنَّها تمتلك سحراً وجاذبية لا تقاوم، فقرر أن يستجيب لرغبتها، وكتب من فوره رداً مراوغاً، عبر الواتس أب، قال فيه:

عزيزتي كوثر

لعلَّ من المُدهش أن تصلني رسالتك، وأنا في الوقت ذاته أفكر بلقاء يجمعني بك، لقد اشتقت

للإصغاء إلى حديثك الثري العذب، وأن أمتع ناظريَّ بأنوثتك المُعجزة، انتظريني فسأكون في الوقت والمكان الذي تقررينه، حيث أنت.

المشتاق سمير الآغا

في 4 نيسان لعام 2010م.

انتشت كوثر، حتى حدود الثَّمل، إثر قراءتها رسالته، فاغتنمت الفرصة السانحة، وطلبت سمير على رقمه الجوال، وقالت بصوتها الأنثوي البديع:

- هكذا إذن يا عزيزي، ليكن موعدنا غداً، في مقهى الهافانا في الصالحية، في الحادية عشرة صباحاً.

رد سمير مبتهجاً:

- سأكون عندك في المكان والتوقيت المحددين.

وأردف بذات اللَّهجة:

- لو تعلمين كم بي من شوق للقائك.

ردت كوثر من خلال ضحكتها اللَّعوب المُغريَّة:

- أبادلكَ الشُّعور ذاته، وانتظر لقاءَك.

ثم أغلقت الخط، تاركة له مساحة واسعة، يُعمل فيها خياله الخصب.

وبالرغم من أن سمير قد تفاجأ، بالموعد السريع الذي ضربته له كوثر الأسمر، إلا أنه قرر الذهاب إليه، آملاً أن يُمضي وقتاً ممتعاً مع أُنثى على هذا القدر من الذكاء والفتنة، سيما وأنها قد تغلبت عليه ذات حوار بمعلوماتها في الفيزياء الحديثة، فبدا له أن تنازلاً، كالذي بدر منها الآن، كفيلا بأن يُرضي غروره.

ومدفوعا بالصد الذي لاقاه من حبيبته عفاف، أثناء زيارتها له في مزرعته، فقد وجد في ذلك الصد، تبريرا لسلوكه، غير المضمونة عواقبه.

وفي صبيحة اليوم التالي حينما كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة إلا ربعاً كان في مقهى الهافانا بالعاصمة دمشق، ينتظر وصول الدكتورة كوثر، وقد جلس إلى طاولة في ركن قصي داخل المقهى، تطل على وجيبة فسيحة، تشغلها أشجار الأكاسيا والورود والصباريات، فبدا سارحاً في هذا الجو الرومانسي البديع، ضمن هالة ضبابيَّة من دخان تبوغ مرتادي المقهى، المعدودين على أهل الثقافة والفكر.

وما هي إلا لحظات حتى قطعت عليه كوثر الأسمر تأملاته بضحكتها المُجلجلة، فعانقته بمزيد من البهجة والفرح، وبعدما قدّم لها كرسياً، دعاها إلى الجلوس قبالته، والفرح بادٍ على مُحياه، خاطبها قائلاً:

- كنت انتظر أن نجتمع ثانيّة، فلقاء مع شخصيَّة علميّة جذابة كأنت، أمر نادر، لا يمكنني تجاهله.

ابتسمت كوثر راضية للإطراء الذي أبداه سمير، فظهرت أسنانها البديعة المنتظمة، ناصعة البياض، بينما توردت وجنتاها خفراً، وهي تقول:

- بالرغم من أننا نبدو كغريبين، إلا أنك، ومنذ لقائنا الأول، تركت في نفسي انطباعاً قوياً، بأننا سنغدو أكثر من مُجرَّد صديقين.

ابتسم سمير وقد بدا مطمئنا إلى انه أمام أنثى تكن له الحبَّ، وهي أنثى فاتنة، في الوقت ذاته، فقال:

- ثمة ما يجعلني مشدوداً إلى أنوثتك الطَّاغيَّة، وتمرُدك البديع على كلّ العادات والتقاليد الاجتماعية الباليّة، وبالإضافة إلى ذلك فانت على قدر كبير من الحيوية والفتنة، على نحو يغريني، ويشدني اليكِ بقوة.

ثمَّ راح سمير، مُتلذذاً، يتفرس بانتباه حذر، في وجه الدكتورة كوثر، ليتحرى ردة فعلها على عبارته الجريئة، فوجدها، وقد غمرتها نشوة السّعادة، طفق الدم إلى وجنتيها، فازدادت تألقاً وسحراً، وقالت:

-قبيل لحظات كنت أفكر أنه يمكن لنا أن نتحدث على نحو مُتكلف، ولكنك بصراحتك، وجرأتك

في التعبير عن مشاعرك، جعلتني أعيد النظر في الأمر، يمكننا إذن التحدث على نحو أكثر أريحية، بغير تكلف.

نظر سمير في عينيها متأملاً ثم قال:

- يسرني ذلك.

وما أن نطقت باسمه المجرد من الألقاب:

-سمير ...

حتى صار النادل بقربهما، يسألهما عن طلباتهما، فقال سمير:

-أنا أرغب في شرب البيرة، مع سندويشات من الجبنة، فماذا تفضلين أنتِ؟

ردت كوثر، وقد طرفت عينها اليمنى، بغمزة آسرة:

- رغبتي تتوافق مع رغبتك، لتكن البيرة والجبنة إذن، فأنا لم أتناول فطوري بعد.

طلب سمير زجاجة من البيرة المُثلَّجة، بالإضافة إلى سندويشتين من الجبنة، فأحضرهما النادل، وقام سمير بصب كأسين من البيرة، فقدم لكوثر كأساً منهما، وسندويشة من الجبنة.

وبعد أن ارتشفت جرعة من البيرة قالت كوثر وابتسامة فاتنة تطوف على ثغرها:

- طلبت مواعدتك كمراهقة، أفلا تظن أنني كنت حقاً كذلك؟

نظر مطولاً في عينيها، والابتسامة تطوف على محياه، ثم رد مبتهجاً:

-لو لم تفعلي، لكنت على وشك مواعدتك كمراهق.

ومع ابتسامته المراوغة راح سمير يتناول جرعة من كأس البيرة. بينما كانت كوثر تمضغ لقمة من سندويشتها، وحينما فرغت من ذلك، أخذت جرعة من البيرة، وقالت:

- فلتعلم إذن أنني ممن تغريهم المغامرات، وتأسرهم العواطف الجامحة، وبلا أدنى مواربة، ها أنا ذا، على نحو مُتهور، أخبرك أنني معجبة بك.

أرتعد سمير، لأول وهلة، وانقبض قلبه، إذ تذكر أن عفاف الراعي ربما باتت في طريقها لأن تصبح جزءاً من ماضيه، الذي راح يغرق في النسيان، فامتقع لونه، وتعثر في إيجاد جواب مناسب، ولكنَّه سرعان ما استعاد رباطة جأشه، وبذات الجرأة التي بدت بها كوثر أجاب:

- اذا كنتِ أنتِ من هواة المغامرة، فلتعلمي إنني أهل لذلك، هازئ بكل الفروض الأخلاقية المُزيَّفة، التي درج عليها العامة، وفي اعتقادي

أنَّ ما من متعة تفوق متعة الاستمتاع بالثناء الذي تُغدقه عليك أنثى حسناء، فما بالك إن كانت هذه الأنثى هي كوثر الأسمر، لقد جعلتني أشعر أنني أحرزت نصراً حقيقياً.
بدت كوثر مغتبطة من جواب سمير فقالت بارتياح:
- هذا أمر جيد، ويفتح أمامنا المجال رحباً، لتطوير علاقتنا معاً.
كان سمير يُفكر في أن يُمضي وقتاً ممتعاً مع كوثر الأسمر، ولم يكن قد شعر بعد، بذلك الميل العاطفي الجارف، كالذي كان يستحوذ عليه في علاقته مع عفاف الراعي، ولكن بالرغم من ذلك فقد راحت عفاف تتلاشى صورتها رويداً رويداً من مخيلته، مُخليَّة مكانها، في قلبه، لحب جديد، وبالرغم من ذلك، فقد تهيأ له، بأنَّ ما يُقدم عليه ليس أكثر من مُغامرة عاطفيَّة عابرة.
وعلى نحو غامض كان يشعر بأن علاقته مع كوثر تشكل، على نحو ما، انتقاماً لا شعورياً من غريمه أحمد الأسمر، ومع ذلك فقد كان لجمال كوثر وجرأتها، وقدرتها على التَّمرُد على القيود الاجتماعية، ما يثير إعجابه الشَّديد، ويجذبه إليها بقوة سحريَّة غامضة، راحت تأخذ بمجامع قلبه، فبات في حالة تشتت في الفكر، وحيرة في الأمر، لا يحسد عليهما، خصوصاً وأن غريزته الطبيعيّة، كذكر شرقي، كانت قد أخذت سبيلها إلى التحكم

الكامل برشده، ولم يعد من السهل عليه السيطرة على عواطفه المكبوتة.

فما لبثت كوثر الأسمر أن قطعت عليه سلسلة أفكاره حينما قالت، وابتسامة غامضة تراود ثغرها الجميل:

- والآن وقد انتهينا من تناول البيرة، ما رأيك أن أستضيفك في شقتي؟

كان لدعوتها له إلى شقتها وقع المفاجأة الصاعقة عليه، ولكنَّه بالرّغم من كلِّ التوجسات، بدا مغتبطا بهذه الدعوة، وإذ شعر بشيء من الإحراج، استفسر وابتسامة خجولة تراود ثغره:

- لعله من عدم اللباقة أن أرفض دعوتك، ولكن ألا يمكن أن يُشكل هذا إحراجاً لك؟

ابتسمت كوثر، وهي تضع يدها في يده، وتقول:

- هيا انهض، كفاك مراوغة، إنني أسكن في حي راقٍ من أحياء دمشق القديمة، فلنغادر فوراً يا عزيزي.

امتثل سمير لرغبتها راضياً، بينما كانت رغبة غريزيَّة لذيذة واعدة، تراود عقله، وتقوده إلى حيث تُريد له كوثر أن يكون.

فسار خلفها إلى حيث سيارتها، واستقلاها معاً باتجاه حي باب توما الدمشقي القديم، وفي الطريق توقفت كوثر لشراء الخضروات والفواكه واللَّحمة والفطر، كما تزودت بصندوق من زجاجات البيرة.

كانت شوارع دمشق مزدحمة بالمّارة، وكلٌّ يمضي خلف مشاغله، بينما كوثر الأسمر تقود سيارتها، والى جوارها سمير الآغا، يتداولان اطراف الحديث، وقد بدت عليهما علائم الرضى والسعادة، حتى ليخال لناظرهما، أنهما مقبلان على ليلة فرحهما.

وحينما وصلا إلى أمام بناء مؤلف من ثلاث طبقات، أوقفت كوثر سيارتها حذاءه، فصعدا الدَّرج إلى الدَّور الأول حيث شقتها، مصطحبين مشترياتهما، فقادته كوثر إلى غرفة المعيشة، التي بدت مؤثثة على نحو فاخر، تتصدرها أرائك من الطراز الفيكتوري، فجلس سمير إلى إحداها، بينما استأذنته كوثر للذهاب إلى مطبخها، حيث قامت بتحضير طبق شهي من التبولة، وأطباق من المُكسرات والمُخللات، وزجاجتين من البيرة المُثلجة، ثم جلست إلى جواره، فصب سمير البيرة، في قدحين أنيقين من البلّور، بينما تابعت كوثر الترحيب به قائلةً:

-يسعدني حضورك في وقت أنا في أشد الحاجة فيه إلى صديق يتفهمني، ويمكنني أن افضي اليه بكلِّ رغباتي.

تنحنح سمير، ومتجاهلاً ما قالته كوثر، عن الرغبات، قال متسائلا:

- ألا زلت على انشغالك الطموح بميكانيكا الكم؟

ردت كوثر بعدما تناولت جرعة كبيرة من كأس البيرة، وراحت تقهقه بضحكتها المُجلجلة:

-وتسألني حقاً؟ جوابي: نعم، فهي تخصصي، ثم إنني مدينة لميكانيكا الكم أنها هيأت لي أن أتحاور معك، وأتعرف إليك أكثر.

ثم انفجرت في موجة صاخبة من المرح الغامر.
مضغ سمير متلذذا ملعقة من صحن التبولة ثم قال مبتسماً:

-إذا كان الأمر كذلك فدعيني أتساءل، وأجيبي على تساؤلاتي دون مواربة: هل حقاً لميكانيكا الكم، تجريبياً، ما يثبت صحة فرضياته؟

ابتسمت كوثر دون اكتراث، وهي تتجرع البيرة ثم قالت:

-نعم يا عزيزي فكل التطبيقات العملية في شتى مجالات الإلكترونيات، من الهاتف النقال إلى الكمبيوتر الكمومي، جميعها أثبتت صحة تجارب علم ميكانيكا الكم، ولم يعد هنالك أدنى شك بما قد حققه، وتوصل اليه من نتائج، حتى أنَّ ظاهرة التشابك الكمي، التي تبدو للوهلة الأولى عصية على التصديق، تمكن علماء صينيون، منذ مدة قريبة، من إثباتها بالتجربة، على مسافة اثنا عشر

ألف كيلومتراً، عبر استخدام الأقمار الصِّناعيَّة، ويُعتبر هذا الإنجاز أمراً عظيم الأهميَّة.

أسدلت كوثر، ستارة الموسلين البنفسجية، على شباك غرفتها المطل على الشارع، بينما كانت تُصغي، في الوقت ذاته، إلى حديث سمير، الذي بدى الآن، وعلى نحو غريب، مخالفاً لقناعاته المألوفة، ومتفقاً مع كلّ ما تقوله كوثر، حينما راح يقول:

-أعتقد أن ذلك سيصيب الدِّيانات الرّسميّة في مقتل، ألا تعتقدين بذلك؟

وبعدما تجرعت جرعة كبيرة من كأس البيرة، ردت كوثر:

-إذا شئنا الحقيقة فالجواب هو نعم، فإن ميكانيكا الكم تدعم مذهب "وحدة الوجود"، حيث لا وجود لهذا الواقع، الذي نعلمه، بغير وجود مُشاهد واعٍ.

فالله والطبيعة حقيقة واحدة، وإنَّ الله هو الوجود الحقيقي، وهو صورة هذا العالم المَخلوق، أما مجموع المظاهر الماديّة فهي تعلن عن وجوده، دون أن يكون لها وجود حقيقي قائم بذاته.

وهذا الفهم يفضي إلى أنَّ عقيدة وحدة الوجود، التي تتخذ من الحب الإلهي، أساساً لدين عالمي، يتخطى حدود الديانات الرَّسميَّة، التي فرقت بين

الأديان المُختلفة، وباعدت بينها، هي عقيدة تنطوي في ذاتها على توحيد كلّ الأديان، وصهرها في بوتقة واحدة تقوم على المحبة للخالق العظيم، ولكل المخلوقات في الطبيعة، بغير تمييز، أو تفريق فيما بينها. وهذا لعمري إجراء إصلاحي، غاية في الأهميَّة، يتناقض جذريا مع وجهات نظر كل الديانات الرَّسميَّة المعروفة.

تناول سمير جرعة من البيرة ثم قال:

- أجد في ذلك انتصاراً للإنسان، فلن يختلف الناس حول عقيدة بسيطة، وواضحة كل هذا الوضوح، وقائمة على أساس المحبة، التي تشكل ديناً حقيقيا لغير الأغبياء.

ابتسمت كوثر برضى عن النفس، ثم قالت:

-نعم يا عزيزي، وسيسهم ذلك في انتفاء الحروب على أساس ديني، وسيرتقي البشر فوق رؤاهم الأنانيَّة، مما سيجعل حياة الأجيال القادمة أكثر مرونة، وقدرة على التطور السّلمي، وأكثر قدرة على الإحساس بالجمال، والتمتع بالحبّ، والاندماج العضوي بالطبيعة الأم.

بدا سمير مستمتعاً بحديثها العذب إلى درجة جعلته يفرط في الشراب، حتى بدا عليه انه قد اصبح ثملاً

بعض الشيء، فتنبهت كوثر من لحظتها، أن وقت الغداء قد أزف، وهما لا يزالان منهمكين في حوارهما المُتشعب.

وبعدما القت نظرة إلى الساعة الجداريَّة، فوجدتها تقارب الثالثة، قالت:

-لعله آن لنا أن نتناول طعام الغداء، ألا تشعر بالجوع؟

أجابها سمير:

-نعم.

ابتسمت كوثر، وأشارت إليه بيدها على نحو مُثير، وهي تقول:

-اتبعني إذن إلى المطبخ.

تبعها سمير إلى مطبخها وراح ينتظر تعليماتها، وبينما راحت تبحث في برادها، وهي محنية الظّهر، كان سمير يتأمل تقاطيع جسدها المكتنز الجميل، فكانت معالم وركيها تبدو مثيرة للغاية في استدارتهما البديعة، التي بدت مُذهلة خلف تنورتها القرمزية.

قدمت إليه وعاءً ممتلئاً بالخضروات، ومفرمة، وقالت:

-انشغل أنت في إعداد السلطة، وأنا سأقوم بإعداد طبق من الفطر باللَّحمة.

رد سمير، الذي كان مأخوذا بجمالها، على نحو تلقائي:

-حاضر.

وبعد تجهيز طعام الغداء تم فرشه على طاولة المطبخ، وجلست كوثر إلى جوار سمير وخاطبته قائلة:

-إيه أيها العزيز، والآن، قل لي بربك، ما رأيك بطعامي؟

تناول سمير ملعقة من الفطر باللحمة، وبعدما مضغها بهدوء، اثنى على كوثر، وعلى قدرتها على إعداد طعام لذيذ وممتع.

وبعد الغداء، انتقلا مجدداً إلى غرفة المعيشة، حيث قدمت كوثر، طبقاً من الكُنافة النابلسيَّة، مع القهوة، وإثر ذلك بات الوقت ملكاً لهما، فقالت:

- اعتدت، بعد تناول طعام الغداء، أن أنام لمدة ساعتين، فماذا ستفعل أنت خلال هذا الوقت؟

قال سمير، الذي كان لم يزل ثملاً بعض الشيء:

-أظن أنه يمكنني أن أغفو قليلاً.

ردت كوثر بكل أريحية:

-خذ راحتك، ويمكنك الذهاب إلى غرفة النوم إذا شئت.

أجاب سمير:

-كلا أريد أن أرقد هنا، في مكاني إذا سمحتِ.

ناولته كوثر حراماً من الصوف، بينما فتحت باباً يفضي إلى غرفة نومها، ولسبب غامض يتعلق بكوامن النفس البشريَّة وشهواتها، تناست كوثر باب غرفة نومها مفتوحاً، فكان يقع على نحو موارب، قبالة باب غرفة المعيشة، بحيث يمكن للناظر، من غرفة المعيشة رؤيتها، وحينما أخذت تبدل ثيابها بدت، وهي عارية، أكثر جمالاً وفتنة بجسدها الممشوق الخالي من الترهلات، فتحسست بلذة مواضع الإثارة في جسدها، وهي تنظر إلى مرآتها الجداريَّة، فأيقنت أنَّها الآن تبدو أكثر جاذبية من مارلين مونرو، ثم استلقت على سريرها واستسلمت إلى نومٍ عميق.

بينما بقي سمير، الذي تمكن من رؤية جسدها العاري، يُعارك رغبة مُلحَّة للتعرف إلى ذلك الجسد الشَّهي وامتلاكه، حينما استسلم لإغفاءة، دامت حتى ساعات المساء الأولى، حيث استفاق على كوثر، وهي ترتدي ثوب نومها الرقيق، الذي يُظهر بعضاً

من مفاتنها، وهي تتحسس وجنتيه براحتيها، فلم يتمكن، وقد فتح عينيه على تلك الفتنة، إلا أن يجذبها اليه بحركة، بدت لأول وهلة كأنَّها عفويَّة، مما جعلها تسقط إلى جواره، وهي تحاول تفادي شفتيه إذ لامستا شفتيها، ولكنها إذ شعرت بحرارة جسده الشبقي، لم تتمكن من الإفلات من رغبتها في عناقه، ففعلت ذلك، جاعلة أوهام العفة تتلاشى، كما يتلاشى الضباب في حضرة الشمس الحارقة.

همس لها:

- من المستحيل مقاومة هذه الفتنة.

فابتسمت كوثر، بِحياء بديع، ضاغطة بشفتيها على شفتيه، تلتهمهما بشراسة، بينما شرعت يداه تفككان عرى ثوبها، فبدت وهي عارية كحورية خرافية، وما هي إلا لحظات حتى غابا في مُتعهما الغامضة، العصيَّة على الترويض، وحينما كان لهاثهما الشَّبقي قد خبا، احتضنها بين ذراعيه القويتين، ووضع رأسه المخمور لذةً بين نهديها المنتصبين، وخلدا إلى إغفاءة مُمتعة، دامت حتى آخر ساعات المساء، وإثر صحوهما، نهضت كوثر مرتكزة على مرفقها، فنظرت في عينيه مباشرة، نظرة شبقيّة، مع ابتسامة غامضة، تنم عن سعادة غامرة، وقالت:

-يبدو أن الطبيعة قد منحتنا جوازاً للعبور إلى الحبّ.

ابتسم سمير، الذي تذوق حلاوة ثمار الطبيعة لتوه، من خلال جسدها الفاتن، وقال:

-إذ تجلت الطبيعة في فعل الحبّ، الذي عشناه، فأنا أعبدها دون أية شكوك بروعة الخلق.

قالت كوثر، دون أن يبدو عليها أي أثر للقلق، أو الشكوى:

-حسناً، يبدو أننا الآن قد أصبحنا أكثر من مُجرَّد صديقين.

وهكذا أمضيا، الوقت المتبقي من ليلتهما، في نعيم فاق نعيم الجنَّة الموعودة.

وفي صبيحة اليوم التالي، استيقظت كوثر في التاسعة، لتجد إلى جوارها، على سريرها الوثير، ذلك الشاب الوسيم، عارياً كما ولدته أمه، فتأملته بنظرة ملؤها الحبّ، قبيل أن توقظه بقبلة ساخنة من شفتيها، ثم مدت يدها بهدوء، لتقبض على عضوه المُنتصب، فأودعته في فرجها اللَّاهب، وأمضيا وقتا ممتعاً، قبيل أن يستيقظا من جديد، ليستحما معاً، ومن ثمَّ يشرعا في تناول طعام الفطور.

قادته كوثر بسيارتها إلى مركز انطلاق الحافلات، مودعة إياه بقبلة خاطفة، وقد تثنى له، قبيل مغادرته، أن يعدها بلقاءات دوريَّة، للتحدث بشكل أكثر استفاضة، عن سحر الطبيعة، وعجائب الفيزياء، وإذ فهمت كوثر مغزى تلميحه المُثير، ابتسمت بلذة غامرة، وهي تلوح له بيدها مودعة.

(9)

كان ذلك في أواسط شهر نيسان، من ربيع عام 2010، الذي حلَّ، على سماء حوران، فبدت صافيَّة، إلاّ من قطع مُتفرقة من الغيوم، التي خَضَّبها الشَّفق الغربيِّ باللّون الوّردي، وهي تهرول كخراف فَزعة، صوب شمس آيلة إلى المَغيب، بينما الرَّوابي والسُّهول قد اكتست حلة سندسية بديعة، ومن كل الجهات كانت تهبُّ نسائم تحمل معها شذى الأزهار والورود والرَّياحين.

أمَّا النَّاس، وأغلبهم من الفلاحين البُسطاء، فكانوا في رواحهم وغدوهم، خلف أشغالهم ومسراتهم، وتساليهم في حوانيت القرية الصغيرة طفس، التي تقع إلى الشّمال الشّرقي من درعا البلد، وتبعد عنها مسافة ثلاثة عشر كيلومتراً، بينما تقع إلى الجنوب من العاصمة دمشق، بمسافة تقدر بمائة كيلومتر.

وثمَّة من كانوا في طريقهم لأداء صلاة المَغرب، في جامع القرية، الواقع في الجهة الجنوبية من الطريق العام، حينما شاهدَ المَّارة، شَعرها الأشقر الطويل، يتدلى من نافذة منزلها، ويده الثّخينة، التي حطّت على مؤخر عُنقها، تدفعها باتجاه الأسفل، بينما راحت يدهُ الأخرى تُحاول رفع جسدها المُمتلئ، بغية إسقاطها من تلك النَّافذة، في الطابق الثَّاني، إلى إسفلت الشَّارع.

كانت تُحاول جاهدة التشبث، بإفريز النّافذة، وبكلتا يديها، تدفع بجسدها نحو الخلف، بينما أصابع قدميها الحافيتين تُطبقان بقوة، على نَعلات الرّخام المُتموضعة في أسفل الجدَّار، في محاولة يائسة للتشبث بالحيّاة.

حتى إذ بدت محاولاتها المُستميتة دون نفعٍ يُذكر، انتابها اليأس من النجاة، وإذ لم تتمكن من الإفلات من قبضتيه القويتين، فقد قررت الاستسلام، مستجيبة لكلِّ طلبات زوجها، وبصوتها الذي كاد يختنق بالدّموع، صرخت تقول:

- ليَكن لكَ ما تشاء، فدعني وشأني، أيها الوغد.

فما كان لأحمد الأسمر، أن يمتلك من الشَّهامة، ما يجعله يهتّم بالشَّتيمة التي وجهتها إليه زوجته عفاف الراعي، بل كان دأبه تحقيق ما سعى إليه، حتى إذا تيقن أنه أدرك مبتغاه، أعادها إلى أرض الغرفة، ومادّاً إليها يده اليمنى بمستند مَطبوع، وبيسراه قلم حبر ناشف أزرق، أمرها بأن تُوقع على مستند أمانة تقر فيه، بأنها استحوذت من مالهِ الخاص، على مبلغ خمسمائة ألف ليرة سورية، وكان ذلك المبلغ حينذاك يُعادل بالتمام والكمال مؤخر صداقها، وإثر فراغها من التّوقيع على المُستند المذكور، اختطفه من يدها بعنجهية المُنتصر، وطواه بعنايةٍ، وهو يبتسم ابتسامة الظَّافرين، ووضعه في الجيبِ العُلوي لسترته

المُمَوهةِ، ثم عاجلها بعبارة: أنتِ طالق، وطردها خارج المنزل، غير مكترثٍ بمصيرها، لا بل أهانها بالضَّربِ المُبرِّح، خلال مغادرتها لمنزلها.

إثر ذلك الحدث الرَّهيب، أمضَت عفاف الراعي سواد ليلتها، في بيت صديقةٍ مقربةٍ منها، ريثما تثنى لها في صبيحة اليوم التالي، السَّفر عائدة إلى منزل والدها في بلدتها مصياف.

ولأول مرة في حياتها أدركت عفاف، مدى تفاهة الاقتران برجلٍ نرجسي جاحد، فاقد الإنسانية مُتبلد الحس، عديم الأخلاق.

ولوقتٍ لم يستمر طويلاً، بدت في حالةٍ من الكآبة حينما عادت بذاكرتها إلى أيام خطبتها، وراحت تتأمل فداحة الخطأ الذي أقدمت عليه، حينما أذعنت لابتزاز والدتها، فقبلت أن تتزوج من رجل، لم تكن تحمل له في أعماقها أيَّة عاطفة حبّ أو احترام، فقالت بصوت خفيض، وكأنها تفضي بحديثها إلى نفسها:

- تباً لهذا العالم المُرائي، إذ لم يزل فيه للأنذال ميداناً رحباً للمُراوغةِ، وافتعال الظّلم، وارتكاب الجَرائم المَوصوفة بحق الملائكة دون ادنى شعور بالمسؤولية.

وقد كانت عفاف، في الواقع، ملاكاً طاهراً، فباستثناء الحبّ، لم تلوثها لعنة الخطيئة بعد.

تنهدت بعمق، لمرات ثلاث، مستنشقة الهواء ملء رئتيها، ثمَّ زفرته ببطء شديد، فشعرت بشيء من التحسن، وباثَّه حديث نفسها إلى نفسها، من جديد، تمتمت تقول:

- لم يعد ثمَّة مَخرج آخر، فبات الطَّلاق، هو الحلّ الوحيد المُمكن، وبالرُّغم من قسوة الإقدام على ذلك، في مجتمع متخلف كمجتمعنا، فليكن ما يكون من نتائج، يكفيني أنني قد تحررت من عبودية استمرت ما يقارب عشرة أعوام.

إنَّ طلاقي من أحمد الأسمر، يُعدُّ مكسباً عظيماً، يستحق أن أضحي من أجله بكل ما أملك، وسأثابر منذ الآن على تدَّبر أمر حياتي بنفسي، وأعيش كما يحلو لي، بعيداً عن قيود زوج سيكوباتي شرير، أخفق في أن يستحق الاحترام مني، ومن المجتمع.

وفي محاولة لاستنهاض روحها من جديد، تابعت حديث نفسها إلى نفسها، وابتسامة غامضة ترتسم على مُحياها:

- أشعر الآن بقوة غريبة، تدبَّ في أوصالي، فتروي ظمأ روحي، إلى حياة حرة كريمة.

لقد نلت نصيباً وافراً من القهر والألم، حتى أصبحت قادرة على مواجهة أية مصاعب تعترض سبيلي، فذلك الوغد، الذي ارتضيته، مُرغمةً، زوجاً لي، كان يعمل طوال الوقت، على تحطيم إرادتي، وكبت كلّ رغباتي، وتحطيم إنسانيتي.

وعلى أمل إصلاحه، كنت راضخة له، مُذعنة لإملاءاته، ورغباته السّادية، دون أدنى تفكير بالعواقب.

ولكنني، وقد امتلكت حريتي من جديد، لن أدع، لأي كان، الفرصة لأن يستأسد عليَّ، فحمدا لله أنَّه فعلها وطلَّقني من تلقاء ذاته، لكأن السَّماء استجابت لرغبتي الدَّفينة بالتحرر من نير تلك العبوديّة القاسيّة.

وفي صبيحة اليوم التالي كانت عفاف في حافلة تقلها إلى مدينة دمشق، ومن هناك استقلت حافلة أخرى أقلتها إلى بلدتها مصياف.

لدى وصولها إلى منزل أهلها، بدا والدها علي الراعي، وهو يستمع إلى قصتها، متفهماً تماماً لما آلت إليه أحوالها، ودون أن يُبدِي أيَّة تَحفظات، كان مسانداً لرغبتها بالانعتاق من زوجها أحمد الأسمر، إذ أدرك، متأخراً، فداحة الخطأ الذي ساهم في تمريره، حينما وافق على تزويج ابنته من رجل أحمق.

بيد أن والدتها وفاء الزير التي اتخذت موقفاً مُعارضاً لطلاق ابنتها، شرعت في محاولات مستميتة، للتوفيق بين عفاف وزوجها، مدفوعة بتأثير من عقليتها الشَّرقيَّة المُحافظة، ومفاهيم الشرف والعار المُتوارثة في بيئتها، فبذلت بتكتم وسريَّة تامة، بالاتفاق مع عائلة أحمد الأسمر، محاولة مستميتة، استخدمت خلالها وساطة وجهاء المنطقة، من رجال الدِّين، ومعارف والدها، لإعادة ابنتها إلى كنف زوجها.

فقد وجدت وفاء في طلاق ابنتها نوعاً من العار الذي لحق بها شخصياً، إذ كانت تنظر إلى المُطلقة وكأنها مجرَّد مشروع لعاهرة جديدة، فهي تعتبر، كما هو العُرف السّائد في مجتمعها التقليدي المتخلف، أنَّ المُطلقة يسهل إغواءَها، خصوصا وإن إقامة الفعل الجنسي معها، قد بات أمراً سهلاً، فلم يعد لغشاء العفّة المُتوّهم، دوره في إعاقة هدر ذلك الشّرف العظيم، المُتوارث، بين فخذيها.

ولكن عفاف، التي أضحت أكثر صلابة من أي وقت مضى، أصرت على أن يتم طلاقها القانوني من أحمد الأسمر في أقرب وقت مُمكن، مهما كلَّفها ذلك من ثمن.

فلم تستغرق إجراءات الطلاق وقتاً طويلاً، إذ تمَّ لأحمد الأسمر ما أراده، وخطط له، فقد فرض على

طليقته المُخالعة أمام المَحكمة الشرعيّة، شريطة تنازلها الكامل عن حقوقها الزَّوجيّة، المنصوص عنها في عقد زواجها، مقابل إتلاف مستند الأمانة الذي صار بحوزته.

قبلت عفاف تلك المُساومة الدّنيئة، مُذعنة للأمر الواقع، وفي عُمقِ طويتها، كانت تُدرك أنَّ الحريَّة التي نالتها، لا تُقدر بثمن.

وخلال التفاوض بينهما بصدد المُخالعة ارتضى أحمد الأسمر، بدناءته المعهودة، أن تحتفظ عفاف بطفليها، شريطة إعفاءه من الإنفاق عليهما، فرضيت بذلك مبتهجة.

كانت عفاف قد أمضت سنواتها العشر الأخيرة في كنف زوجها أحمد الأسمر، الضابط الذي كان قد صار، حين طلاقها منه، برتبة عميد من ملاك القوى البريَّة، وقد أنجبت من ذلك الزواج ابنها باسم الذي صار في عامة العاشر، وابنتها باسمة التي تخطت ربيعها الثامن، حينما حصلت، واقعة المُخالعة في الخامس والعشرين من شهر حزيران لعام 2010، بينما باتت عفاف على مشارف عامها الحادي والثلاثين، وقد عاشت وأسرتها الصغيرة، سنوات زواجها، في شقة من بناء طابقي، جميل وبسيط بقرية طفس، من سهل حوران، اشترتها في بداية زواجها، فدفعت من مالها الخاص، من ثمنها،

مناصفة مع زوجها، ولكن أحمد الأسمر، مُستغلاً طيبتها، سجل كامل ملكيَّة الشقة باسمه، وهكذا فقدت عفاف حقها في المُطالبة بحصتها من منزلها، فكانت تلك خسارة أخرى تقبلتها عفاف بروحها المرحة المُتسامحة، لا بل احتفلت بذلك، متعالية فوق كلِّ جراحها.

وفي بداية زواجهما، كان قد صار للزوجين الشَّابين العديد من الأصدقاء، من ضُباط، وضُباط الصَّف، من الفرقة المُقاتلة التاسعة التَّابعة للفيلق الأول، فكانوا يُمضون معاً سهرات عائليّة، وفي كثير من الأحيان، كانت تلك السّهرات تُصبح صاخبة، إذ يتخللها تناول النَّبيذ، والمشروبات الرّوحية الأخرى، ولأن عفاف بدت مُنطلقة على سجيتها، فقد صارت، محط أنظار الكثيرين من رفاق زوجها، فكانوا يتزلفون إليها، والبعض من كبار الضُباط، كانوا على استعداد للتخلي عن رتبهم العسكريّة طوعاً، مقابل ابتسامة، ذات دلالة، من الفاتنة عفاف، دون أن يتمكنوا من بغيتهم.

وفي الوقت ذاته كانت عفاف تُعاقب بالضّرب المُبرِّح من قبل زوجها إثر تلك السهرات، وطالما تعرضت إلى كسور متعددة، في سلاميات أصابع يديها، بسبب العُنف المُفرط الذي كان يبديه نحوها.

فقد كان أحمد الأسمر شكاكاً، وشرساً بطبيعته، ولأنَّ زوجته الفاتنة تمتلك الكاريزما، والحضور الطّاغي في المجتمع، فقد صار ذلك يُثير غيرته القاتلة، ومقته الشديدين، مما جعله، في أحيان كثيرة، يُعاني من حالات هياج عنيفة، فلا يهدأ إلا بعدما يتمكن من النّيل منها، وإذلالها.

وذات مساء، وقد صادف ذلك يوم خميس، حيث بدء الاستراحة الأسبوعية، كانت عفاف قد رتبت طاولة عامرة بأفخر المأكولات، من الكبّة المقلية، وشرائح اللَّحم المشوي، وطبق كباب من لحمة الضأن، ومُتبل الباذنجان والحمص، والموالح والمقبلات المُتنوعة، ووضعت على المائدة زجاجة من الويسكي الفاخر، ومشربية من عصير البرتقال الطّازج، بانتظار حضور زوجها، وبطبيعتها العفوية الصَّادقة، كانت تأمل أن تلقى منهُ احتضاناً واهتماماً، ومعاملة إنسانيَّة رومانسية، طالما حنَّت إليها واشتهتها، ولكنه حالما حضر من ثكنته مساءً، ادَّعى أنَّ الطعام لم يُعجبه، فسارع إلى قلب المائدة، من خلال ضربها برجله اليمنى، من الأسفل نحو الأعلى، بعنف مُتعمَّد، حتى التصق بعض الطعام على سقف الغرفة، جراء فعله الأهوج.

ثمَّ فجأة خطر له خاطر ماكر، فاشترط على زوجته التي كان، في طويته، يدرك مدى طيبتها وخضوعها

له، خوفا من اضطراباته العنيفة، أن يُلاعبها الشّطرنج، حتى إذا فازت عليه، سيساعدها في تدبير أمور الغرفة التي تلوثت بالمأكولات.

وفي هذا الجو المُرعب خضعت عفاف، مرغمة، لشرطه المُستهجن، فلعبت معه الشّطرنج، ومستجمعة كل مهاراتها في تلك اللعبة، أملاً في إصلاح ما فسد من ليلتها، كادت أن تتغلب عليه، فسارع من فوره إلى قلب رقعة الشّطرنج بيده اليسرى، ثم أمرها أن تنظف الغرفة من بقايا الطعام قبل أن تنام، وذهب ليغط في نوم عميق.

كان يُعاني من سرعة في القذف، وتراخي انتصاب عضوه سريعاً، دون أن يتمكن من إشباع رغبات زوجته، فصار أحمد الأسمر يخشى، على نحو عُصابي، كل ما يذكره بخوض مغامرة عاطفية مع زوجته، خشية أن يبدو مخصياً، تجاه حيويتها الطبيعية المتدفقة، وفي هذا كان يكمن دافعه الحقيقي الخفي، في سعيه إلى الطلاق منها.

تحملت عفاف كلّ ذلك الجور والعنف، على مضض، مُضحيَّة بسعادتها، في سبيل البقاء إلى جوار طفليها.

ولولا أنَّها كانت تُسافر إلى مدينتها مصياف لتُمضي أوقاتا طويلة، في ضيافة أهلها، وعائلة عمها رشيد

الأسمر في مزرعتهما، والمُعاملة الحسنة التي كانت تلقاها منهم خلال ذلك، لما تحملت تلك المشقات طوال سنواتها العشر التي أمضتها، في ذلك الجحيم، صابرة معتلية فوق جراحاتها.

(10)

كان ضياء سعيد قد تخرج من كليّة الصَّيدلة في عام 1988، وبعد أن أدى الخدمة العسكريَّة الإلزاميَّة، افتتح صيدليته الخاصة على شارع حمص الرئيسي من مدينة سلمية في عام 1990، وفي أواسط شهر تشرين الثاني من خريف عام 2010 كان في العاصمة دمشق، يتدبر بعضاً من شؤونه في نقابة الصَّيادلة، وقد بلغ حينها عامة الخامس والأربعين، فبدت له الأشجار التي يصادفها في طريقه، وقد تخلت عن أوراقها، عارية، كما حياته كلّها.

وكان يسير متمهلاً، غير مُستعجلٍ من أمره، في الطريق المؤدي إلى محطة الرُّكاب، وكأنَّه ذاهب في نُزهة، وشريط من الذكريات، يطوف في مُخيلته، حيث حُبَّهُ الأول للصبيَّة السمراء هدى المحمود، التي التقاها مُصادفةً في أواخر عام 1987 في إحدى قاعات المطالعة في المدينة الجامعيَّة من جامعة دمشق، وقد لفتت انتباهه بشعرها الأسود الفاحم، وعينيها البنيتين الدافئتين، وقامتها المعتدلة، وخصرها النحيل، فأسرت لُبَّه، منذ وقعت عليها عيناه لأول مرة.

كانت هدى حينها طالبة في نهاية السَّنة الرَّابعة من كليَّة الآداب قسم اللغة الفرنسيَّة، وبعد قصة حبٍّ ربطت بينهما تزوجت من ضياء سعيد سنة 1990،

وعاشا معاً حياة رغيدة، حتى اذا بلغ زواجهما عامه التاسع عشر، قررا، بالاتفاق فيما بينهما، الانفصال، وقد أنجبا خلال فترة زواجهما بنتاً وحيدة أسمياها نسرين، فتزوجت، حينما بلغت الثامنة عشرة من عمرها، من فريد سعيد ابن عمها حامد سعيد الذي كان يعمل دبلوماسياً في السّفارة السُوريَّة في السُودان، وانقطعت أخبارها عنه.

انقطعت سلسلة ذكريات ضياء، حينما تنبه إلى أنّه قد بلغ محطة الرُّكاب التي يسعى إليها، فدخل فناء المحطَّة حاملاً بيده محفظة أوراقه، مُعتزماً العودة إلى بلدته سلمية.

وكما لو إنَّه كان يَحلم، شاهد سيدة على الرّصيف المُقابل من المحطّة، تنتظر ساهمة الطَّرف، فكان كلما دقق النظر في عينيها، يجد نفسه وقد انتابه الذهول، حتى بدا له وكأن صاعقة قد ألمَّت به، وعصفت بروحه، على نحو مباغت، فانكشفت له الحُجُب دفعة واحدة، وهُيء له أنَّه رأى قبساً من نور الإله، خطف بصره، وسلب لبَّه.

كانت تلك السيدة بانتظار حافلة تُقلها إلى حيث وجهة سفرها، ومندفعاً بكلِّ هذا الزّخم من التعلق والإعجاب الذي انتابه بغتة، راح يلقي عليها تحيته باحترام، وأدب جمّ، فردَّت على تحيته بمثلها، فسألها مُستفسراً عن وجهة سفرها، وأجابته وابتسامة آسرة

ترين على ثغرها، أنها ذاهبة إلى مدينة مصياف، ولأنها كانت تجهل وجهة سفره، ادعى أنه ذاهب في السبيل ذاته، فاستأذنها ليقوم بقطع تذكرتي السَّفر لهما معاً، فلم تُمانع في ذلك، بل دفعت إليه بثمن تذكرتها حالاً.

كانت تسلك سلوكاً عفوياً، بعيداً كلّ البُعد عن التحفظات، التي درج عليها العامة. وهكذا فقد تم تعارفهما كغريبين في درب سفر، فولدت بينهما صداقة هادئة، كثيرة الشبه بالحبّ الذي راح يتسلل إلى أعماق ضياء بهدوء، كلما تعمقت معرفته بجنون عفاف الراعي وتمردها اللافت، وخلال الطريق إلى مصياف، علم من أمرها، أنها كانت تقضي الأشهر الأولى بعد انهيار زواجها الفاشل.

وصلا إلى مدينة مصياف في الثالثة بعد الظُّهر، فتبادلا أرقام جواليهما، على أمل أن يلتقيا ثانيَّةً، ومضى ضياء في حال سبيله إلى مدينة حماه، ثم إلى مدينته سلمية، التي وصلها عند حلول المساء، فنام في تلك الليلة نوماً هادئاً هانئاً، تخللته الأحلام والأمنيات السعيدة.

وحينما استيقظ في صبيحة اليوم التالي، كان كلّ شيء من حوله، يبعث في نفسه بهجة عارمة، فمضى إلى عملهِ في صيدليتهِ، وهو يشعر بأنَّ العالم كلّه قد صار مُلكَه.

لم يكن يعلم بما سيفضي إليه طريقه الجديد في الحياة، ولكنَّه، اختاره بإرادته، على أمل ان يبلغ سعادته التي كان في أمسِّ الحاجة إليها، فقرر أن عفاف الراعي، لا محالة، ستكون قدره القادم.

وفي مساء اليوم التالي اتصل بعفاف، مستفسراً عن أحوالها، فأجابته أنها بخير، فسألها إذا كان بإمكانه القيام بزيارتها قريباً، فرحبت باقتراحه، وزودته بعنوان منزلها، على النحو التالي: مصياف- محطة الركاب- شارع السلام- طلعة الجب-بناية النايف- طابق أول فني- شقة رقم (٣)، ولكنَّها اشترطت عليه، أن ينتظر منها دعوة رسميَّة، ليتثنى لها اختيار الوقت الذي يناسبُها، فقبل بذلك راضياً.

وفي المساء، بعدما جهز سريره للنوم، اصطحب دفتر مذكراته، ودوَّن فيه:

لم أكن قبل اليوم مهتماً، كما أنا الآن، بعالم الرّوح، حتى إذا استأثرت روح متمردة شفافة على عالمي، جعلتني أعيد النظر بكل المُسلمات التي كونتها خلال حياتي. فما عدت الآن سوى روح هائمة في مَهبِّ إعصار هوىً عاصف.

ضياء

في 14 تشرين الثاني لعام 2010.

(11)

منذ أواخر تسعينات القرن المنصرم، كانت البلاد تعاني من الفساد المالي والإداري، الذي راح يتغلغل في أغلب أجهزة ومفاصل الدولة، على نحو متزايد، فبات حال الناس، من الغضب والتذمر، كما النار تحت الهشيم، حتى إذا حل الخامس عشر من شهر آذار لعام 2011 اندلعت نيران الأزمة السورية، عبر تظاهرات، كانت سلمية في بداياتها، وتشكل ضرباً من ضروب الاحتجاج الشعبي على الفساد، والأوضاع المعيشيّة القاسية، التي باتت تعاني منها غالبية المواطنين، خصوصا أفراد الطبقة الوسطى، جراء الامتيازات غير المحدودة، التي حظي بها، المقربون من الحكومة، للتحكم بالاقتصاد السوري ونهبه، بغير وجه حق.

ترأس تلك التظاهرات، في البدء، بضع عشرات من الحالمين، في اليسار الثَّوري، وهم يحملون الشموع والورود، في وقفة احتجاجية، في منطقة الحريقة من العاصمة دمشق، وقد كان مُعظمهم ممن عانوا، سابقا، من الاحتجاز في سجون الحكومة السوريَّة لسنوات عديدة، بسبب مواقفهم اليسارية، فطالبوا بإصلاحات سياسية واقتصادية، بدت في ظاهرها، لأول وهلة، مطالب مُحقة ومشروعة، ولكن الحكومة، التي اعتادت، عبر عمر الثورة الذي صار

طويلا، على استخدام الحلول الأمنيَّة، في مثل هكذا حالات، لم تكن مهيئة، لسماع رأي الشارع، فجابهت تلك التظاهرات بالعنف. فما لبثت تلك الاحتجاجات أن امتدت إلى درعا وحمص وحماه، أما بقية المحافظات السورية فقد التحقت متأخرة بقطار الاحتجاجات، في حين كان جنوب وغرب ووسط البلاد، قد بات في حالة من الغليان، تنذر بكارثة لا تحمد عاقبتها، ولم تفلح كلّ الجهود المبذولة، من قبل العقلاء، للتوسط مع الحكومة، في سبيل إخماد نيران الأزمة في مهدها، عن طريق إبداء بعض التنازلات للشارع الغاضب.

فما لبث الإخوان المُسلمين، أن انضموا إلى تلك الاحتجاجات، بزخم أيديولوجيتهم الطائفيّة البغيضة، فتمكنوا، بمساعدة المتطرفين الإسلاميين من انصار القاعدة، خلال مدة وجيزة، من احتواء الحراك الشعبي، وتوجيهه الوجهة الطائفيَّة الحاقدة التي يريدونها، فتحولت البلاد إلى ساحة لصراع مُسلّح، بات مفتوحاً على أسوأ الاحتمالات، فصارت التظاهرات المُطالبة بإسقاط الحكومة، تخرج من الجوامع، إثر صلاة الجمعة من كل أسبوع، وبات القتلى من الشباب، يتساقطون بالعشرات في الشوارع، مما أضفى على الحراك، الذي بدأ مدنياً سلمياً، طابعاً دموياً، ذا صبغة دينيَّة حاقدة، وصريحة في تطرفها، فغدت الشعارات الطائفيَّة، هي السَّائدة،

وخلفها بات يسير، الحراك، الذي أسموه، زوراً، حراكاً ثورياً، إذ رفع الإسلاميون من أنصار السنة شعارات إبادة أهل الشِّيعة عن بكرة أبيهم، وترحيل المسيحيين إلى بيروت، بينما رفع الشِّيعة والمُعتدلين من أهل السنَّة، من انصار الحكومة، وكانوا يشكلون الغالبية العُظمى، شعارات تُطالب بإبادة المُناهضين للحكومة.

فغرقت البلاد في مستنقع اقتتال طائفي حاقد ومؤلم، واستقدم الطرفان المُتصارعان، أنصارهما من أنحاء العالم كافة، لخوض الجهاد المقدس الدموي على الأرض السوريّة، وصار الخاسر الوحيد هو الشّعب السوري، بفئاته الفقيرة والمتوسطة، بينما اغتنى تجار الحرب، إذ استغلوا ظروف الفلتان الأمني، للإثراء الفاحش، من خلال الاتجار بالبشر، والحجر، والثروات النفطيّة، والآثار، وبكل شيء يمكن أن يباع ويشترى، أو يمكنهم السطو عليه بقوة السلاح، كما شاعت، على نطاق واسع، ظاهرة اختطاف الموسرين من المواطنين، وذوي المهن الحرة، بهدف طلب فدى مجزية، لإطلاق سراحهم، كما سادت ظاهرة السطو والسلب والنهب، للأرزاق والممتلكات، على نطاق واسع، وصار يُمارسها كلّ من طرفي الصراع، ضد الطرف المُقابل، دون أدنى رادع من أخلاق أو ضمير.

ولم تفلح كلّ الجهود والوساطات التي بذلها الوطنيون العُقلاء، في وقف الاقتتال المدمر للوطن والمواطن، في حين بات الموقف الدَّولي مشلولاً، بفعل توازن القوى بين الدُّول العُظمى، المتصارعة فيما بينها، على مناطق النفوذ في السَّاحة الدُّوليّة، وفي الشَّرق الأوسط، على وجه الخصوص.

كذلك فعلت الدول الإقليمية، إذ دعمت تركيا ودول الخليج العربي الحركات الإسلامية السنيَّة المُتطرفة، بينما دعمت إيران وأحزابها الشيعيَّة في لبنان، والعالم اجمع، الحكومة السورية، بكافة الوسائل، ومنها الانخراط العسكري المُباشر في الحرب الدائرة، باعتبار أنَّها، أي الحكومة، هي المُدافعة عن الأقليات الشيعيّة والمسيحيين. بينما في واقع الأمر كانت إيران وتركيا تبحثان عن مصالح لهما في السيطرة، على مناطق نفوذ جديدة، في الدولة السوريَّة، بهدف تعزيز مواقعهما الاستراتيجيّة على السَّاحة الدوليّة، وهكذا غدت البلاد مُستباحة، أمام جحافل الغزاة من الغُرباء.

وعلى الرُّغم من ظروف الحرب الأهليَّة الشَّرسة كان لا بد للحياة أن تستمر، فلم تنس عفاف الراعي البحث عن سعادتها، التي فقدتها مُرغمة ذات يوم، فهي إذ تحررت من زواجها الفاشل، كانت تأمل أن تجد وسمير الآغا، سبيلهما إلى الفردوس الضائع،

ولكنّها بمضي الوقت، شعرت أنَّ سمير الآغا قد اعتراه فتور مُستهجن نحو علاقتهما، فلم يُفكر بالاستفسار عن حالها، ولهذا أرسلت إليه عبر الواتس أب، رسالة تستفسر عن أحواله وتذكره بوجودها، قالت فيها:

حبيبي سمير

ربما تناهى إليك من أخباري، إنني أصبحت حرة طليقة، بعد فسخ عقد زواجي من أحمد الأسمر، فبات السبيل أمامنا مفتوحاً، لنبني عش سعادتنا معاً، فلم يعد ثمة عقبة في طريقنا للإقدام على الزواج. أنتظر منك بادرة تعيد لأحلامي الجميلة بريقها، الذي طالما افتقدته، وحننت إليه.

المشتاقة عفاف الراعي

في 25 أيار لعام 2011.

انتظرت عفاف أسبوعا كاملاً حتى تلقَّت رداً مرتبكاً عبر الواتس أب من سمير الآغا قال فيه:

عزيزتي عفاف

أعتذر لتأخر ردي على رسالتك، بسبب مشاغلي الكثيرة، فأرجو أن لا تعتبي.

أعدك بأن أفكر بالأمر ملياً، وأبلغك من أمري ما يستجد ... سمير. في 2 حزيران لعام 2011.

كانت تلك الرسالة المقتضبة، تخفي خلفها لغزاً مُحيراً، فلم تجلِ غموضاً، ولم تُطمئن عفاف، التي تذرعت بحسن النيّة، واختلقت له الأعذار، وإذ لم تكن على علم بالظروف التي يمر بها سمير، لم تذهب إلى التشكيك بنواياه، فهي لم تكن تعلم عن أحواله، سوى ما يعلمه العامة من الناس، أما هو فلم يشأ ان يخبرها على نحو صريح، بما آل إليه وضعه، ومكان تواجده.

فقررت تأخير ردها على رسالته هذه المرة، ولكنها، بعد مضي مدة طويلة، نفذ صبرها فأرسلت إليه عبر الواتس أب رسالتها الثانية، التي عبرت فيها عما تكابده من آلام، جراء تجاهله، الذي بدا لها، بكافة المعايير، مجافيا للمنطق، فكتبت تستوضح منه الأمر:

عزيزي سمير

عشرة أعوام مضت، ولم يكن فؤادي ملكاً لسواك، لإحساسي أنك لن تفرط فيه، مهما قست الأحوال، وساءت الظروف، فإن كان حبك لي قد خبا، فاعلمني بما حلَّ بك من ظروف، آه لو تعلم كم يؤلمني فراقك، دون أن أعلم سبباً مقنعا لتصرفك، فبحق حبنا الذي كان، أظهر لي المستور من أمرك، وأعاهدك أن أسامحك، مهما كانت الأسباب.

المشتاقة عفاف الراعي

في 25 كانون أول لعام 2011.

وكما بات معتاداً فقد جاء رد سمير متأخراً، يمهد فيه لأمر، بيته في طويته، حيث قال:

الغالية عفاف

اعذريني إن كنت قد أصبحت مُشتت الذهن، مُضطرب البال، فما أمر به الآن لا يمكنني توضيحه برسالة قصيرة، لأنَّه يحتاج شرحاً مطولاً، فثمة ما ينغص حياتي، ويكدر علي سبل معيشتي، شعوري أن قلبي قد انشطر نصفين، ولم تعد لي حيلة لرأب ما تصدع بي، فبات ذلك يؤلمني ويقض مضجعي.

فاعذري تعاستي.

سمير

في 4 كانون ثاني لعام 2012.

تلقت عفاف رد سمير الذي كان يثير الشبهات، لما قد حل به من ظروف، ولكنها لم تشأ أن تصدق أنَّه ربما قد انصرف خلف حب آخر، فما كان منها إلا أن توجهت إليه، برسالة قصيرة يائسة، عبر الواتس أب، قالت فيها:

عزيزي سمير

يؤلمني ما آل اليه حالك، كنت أتمنى أن تطلعني على مصدر شقائك، لأتحمله معك راضية صابرة، ولكنك لم تفعل، مما جعل الهوة بيننا تتسع، ومع ذلك سأظل أترقب عودتك إلى عهدنا الذي يربطنا معاً، على نحو مُقدس، بحبنا الذي كان.

المشتاقة عفاف الراعي

في 6 شباط لعام 2012.

لم يرد سمير على رسالتها الأخيرة، ولكنها كانت قد علمت، على نحو أكيد، أن سمير قد غادر مصياف إلى جهة مجهولة، منذ أوائل عام 2011، بعد أن قام ببيع مزرعته للسيد مراد الحسن، صاحب المزرعة المجاورة، ولم يكن يعلم، أياً كان في بلدته مصياف، بالمكان الذي توجه اليه.

(12)

لم تكن تفارق خيال ضياء سعيد، ولا لحظة واحدة، ذكريات لقائه بعفاف الراعي، منذ أن التقاها لأول مرة، في محطة للركاب بدمشق، وأكثر من أي وقت مضى، كانت تبدو له عفاف، بتميزها المُثير، أنثى عصيَّة على النسيان، ولمحاسن المُصادفة، وكما وعدته سابقا، فقد وجهت إليه بالأمس، دعوة خاصة، عبر الواتس أب، لزيارتها في منزلها.

فاغتنم ضياء الفرصة السّانحة، وهيأ نفسهُ لقضاء بضعة أيام في مدينة مصياف، خصوصاً وأن المناخ كان مُناسباً لتحقيق ذلك، فالوقت عند بداية الصيف، وهواء مصياف العليل المنعش يثير الرغبة للسفر إليها، فراح يرتب أموره، وعهد بإدارة صيدليته إلى زميله أحمد البدوي، الذي تخرج من كلية الصيدلة بجامعة دمشق، وكان يمارس، منذ أكثر من ثلاثة أشهر، مهنته في صيدليَّة ضياء، كمُتدرب، فأتقن خلالها عَمله، وأجاد في تصريف أمور المهنة أيما إجادة، عدا عن ذلك فقد كان أحمد البدوي يتمتع بوفاء نادر، قلَّ نظيره، ويتسم بالنزاهة والدِّقة، مما جعل ضياء يُمحضه كامل ثقته، ويعتمد عليه، في حالات كهذه، اعتماداً كلياً.

كان ذلك يوم الأربعاء في التاسع من شهر حزيران لعام 2012، حينما جهز ضياء كلّ ما يلزمه للسفر،

وحجز عبر شبكة الأنترنت، منزلاً مفروشاً، معداً للإيجار المؤقت، مُكوناً من غرفتين ومنافعهما، ويقع على شارع الوراقة، الذي يؤدي إلى منتزه الوراقة المصيافي الشّهير.

سدد إيجار ذلك المنزل لمدة ثلاثة أيام، عن طريق خدمة الهرم للحوالات المالية، وأبلغ عفاف بتلك التفاصيل الصغيرة، تلافياً لأي إحراج.

رحبت عفاف، باقتراحاته وترتيباته، وأحاطته علماً بأنَّ والدها علي الراعي يُمضي، في الوَّقتِ ذاته، يومي الخميس والجمعة من كلِّ أسبوع، في ضيافتها بمنزلها، حيث اعتاد على ذلك، منذ أن توفيت والدتها، جراء سكتة قلبية ألمَّت بها، على نحو مفاجئ، في أواخر العام الماضي، عن عمر ناهز السادسة والسبعين عاماً.

وأبلغته عفاف أنها تجد في قدومه إليها، في هذا التوقيت، فرصة نادرة، لكي يتعرف إلى والدها، الذي كان، لسبب ما، يُلقّب نفسه باسم المواطن رقم 13. فرحب ضياء بذلك، وعلى نحو غامض، راح يتخيل أن لقاءَه بهذا الرجل، سيكون على قدرٍ كبير من الأهميَّة.

كان الوقتُ متأخراً في المساء، حينما تناول ضياء دفتر مذكراته ودون فيه:

إن لقاءاً يجمعني بعفاف الراعي سيكون بمثابة حدث استثنائي بالنسبة لمُجمل حياتي الآتية، فكسب ثقة عفاف الراعي ومحبتها، بات محوراً لاهتماماتي الحاليّة، وهدفاً نبيلاً أسعى اليه بكامل طاقتي، فحبّ عفاف، قد بات دافعي الحقيقي الوحيد، للاستمرار في هذه الحياة.

ضياء

الأربعاء في 9 حزيران لعام 2012.

وحينما انتهى من الكتابة، غلبهُ الكرى، فترك القلم والدّفتر يسقطان بفتور، إلى جواره، واستسلم إلى نوم عميق، حتى إذا استيقظ في الثامنة صباحاً، تناول كعادته فطوراً خفيفاً، ثم اصطحب حقيبة أمتعته، التي كان، قد جهزها، منذ الأمس، فألقاها على المقعد الخلفي، ثمَّ قاد سيارته متوجهاً إلى مدينة حماه، وبعدها تابع طريقه إلى مصياف، وسط طبيعة محفوفة بالرّوعة والعذوبة، خصوصاً وفتنة الخلق، تصادفك في كلّ اتجاه، من حفافي الوديان المنحدرة نزولاً، إلى سفوح المرتفعات النَّاهدة صعوداً، حيث صاغت الطبيعة تضاريسها، بمهارة فائقة، تأسر اللّبَّ، وتدهش الخيال، فكستها بأشجار متنوعة، من الحور والصفصاف، إلى التين والزيتون ونبات الطيون، والبرتقال والليمون والعنب البري، والزيزفون، فكانت روائحها الشّذيَّة ترافقه على طول

الطريق، والشمس التي نهدت، منذ وقت قصير، على صدر الأفق الشَّرقي، راحت تُرسل أشعتها المُخاتلة، عبر الوريقات الغضّة للشجيرات، فيتكسَّر الضوء عبرها، وينتشر إلى مُكوناتِهِ الأساسيّة، فيتولد عن ذلك انبعاثات مذهلة، شديدة الشبه بألوان الطيف، ما يشد ضياء إلى التمعن بروعة الخلق، فيما جسدته الطبيعة من آيات، تبرهن عن مدى القدرة والطاقة، التي يتمتع بها الامتداد المكاني اللامحدود، الذي هو إحدى الصفات المُدركة للخالق العظيم.

ويطفو على سطح مُخيلته تأثير المُراقب الوّاعي، في تجسيد الأشياء، لتبدو كأنَّها تخلق لتوها، في كلِّ لمحة من جديد.

ولم يكن يُعكر تلك الفتنة سوى دوي طلقات المدفعيَّة، والرصاص، الذي كان يُسمع من بعيد بسبب الحرب الأهليّة الشرسة، الدائرة على الأرض السوريّة.

وفي كل اتجاه كانت قطعان الأغنام والماعز تتسلق التضاريس الوّعرة للأودية صعوداً، أو تنحدر نزولاً من سفحٍ مُرتفعٍ إلى قدم جبل، عبر المسالك الوعرة، بتأنٍ، خشية السقوط.

وأثناء ذلك كانت الطريق تلتف به، يميناً حيناً، ويساراً حيناً آخر، فيقتفي بسيارته أثر الدُّروب

الضّيقة، التي راحت تقوده، صعوداً وهبوطاً، حول تلك المرتفعات الجبليّة، فتبدو الأودية العميقة في الأسفل، ثرية بغاباتها، مُكتظّة بصور الخلق، كجنات عدنٍ، إذ تخللتها سواقي المياه المُنبجسة من عيون الصَّخر، فبدت لناظرها كما لو أنَّها أنهار من لجين، تجري بين جذوع الأشجار، والنباتات البريَّة.

فراحت الأفكار تراود ضياء، بأنَّ هذه الطبيعة بكامل روعتها وأناقتها، إن هي سوى كائن حي، هو الذي يهبنا، نحن البشر، الذين نشكل بعضاً منه، الوجود والوّعي، لنتمتع بهذا الجمال الخالد.

مرت أكثر من ساعة ونصف الساعة، عاش ضياء خلالها النّعيم الحقيقي، وما أن وصل إلى النُصب الإسمنتي، المُدبب في ذروتهِ، المُطلّ على المَدخل الشرقي للمدينة، حتى أدرك وصوله إلى شرفة مصياف، وقد كانت الساعة حينذاك تشير إلى العاشرة والنصف صباحاً.

تذكر لحظتها أن ذلك يحدث في العاشر من شهر حزيران لعام 2012. وهو ذكرى تاريخ ميلاده السابع والأربعون، فابتسم مؤملاً روحه، بأنَّ الحبّ، ربما سيكون الهبة الإلهية المُنتظرة، لعامه الجديد.

عرَّج، أولاً، على المنزل الذي استأجره، فوضع فيه أمتعته، وتفقد منه صلاحيّة الخدمات، ثمَّ تابع طريقه إلى منزل عفاف الراعي.

وببساطتها المعهودة، على مدخل شقتها، استقبلته عفاف الراعي بالترحاب دون تكلف، فلاحظ ذلك مسروراً، ودعته إلى الدخول بابتسامتها الآسرة، ويدها اليسرى امتدت أمامها لتحدد له اتجاهه، وما لبث أن ألفى نفسه في غرفة المعيشة من شقتها الأنيقة، وفي مواجهته، كان يقف شامخاً، رجلٌ على قدر كبير من الوسامة والمهابة، طويل القامة حنطي البشرة متماسك الجسد، قوي البنية، وعيناه العسليتان تشعان دفئاً، وقد غزا الشيب فوديه وناصية رأسه، فعرف ضياء للتو أنَّه علي الراعي، الذي رحب به ببساطة ولطف زائدين، وكأنه كان يعرفه منذ زمن بعيد، ثمَّ دعاه إلى الجلوس إلى جواره، فجلس ضياء على الطرف الأيمن، المقابل من الأريكة، وراح علي الراعي، والابتسامة الآسرة لا تفارق ثغره، يُعرِّف بنفسه باسم المواطن رقم 13 وبصوته الهادئ الرَّصين، خاطب عفاف قائلاً:

- إذن، لو سمحت يا ابنتي العزيزة، يمكنك أن تعدي لنا أكواباً كبيرة من القهوة.

أجابته عفاف مبتهجة:

- حاضر يا أحلى وأغلى بابا.

وبينما مضت عفاف في تنفيذ ما طُلب منها، كان ضياء يتفرس في وجه هذا الرّجل الذي يجلس إلى جواره، وقد تغضنت جبهته بفعل الزّمن، ولم يزل يُصر على أن يُخاطب باسم المواطن رقم 13، فبدا له، وقد تقدم به العمر، متشحاً بجاذبية ووقار نادرين، وكان علي الراعي حينها قد بلغ التاسعة والسبعين من عمره، وما لبث أن تابع حديثه متوجهاً إلى ضياء:

-من دواعي سعادتي أن استقبلك كصديق عزيز، خصوصا وقد شهدت لي عفاف بأنك تمتلك رؤاك الخاصة، فأهلا وسهلاً بك بين أهلك.

في هذه الأثناء كانت عفاف قد شرعت في تقديم أكواب القهوة، وبعدما قدمتْ له كوبه، أخذ منه المواطن رقم 13 رشفة، وتابع يقول:

- اعذر صراحتي، وأنا في هذا العمر المُتقدم، ونتيجة لهذه الحرب الملعونة، التي بتنا نعاني تبعاتها المُخزية، تظل تشغلني القضية الاجتماعية، بالرغم من أنّه يجب الاعتراف بأن دورنا، نحن الشيوخ، قد بات بلا أهميَّة تذكر، فيما يتعلق بصناعة المُستقبل، فالأمل قد بات معقوداً عليكم انتم، والشَّباب من الجيل الجديد، ممن نشأوا وترعرعوا في مناخ عصرٍ صفته

الأبرز أنَّه من أكثر العُصور تقدماً في كافة مجالات العلوم والتكنولوجيا، أما المواطن رقم 13.

وأشار إلى نفسه، مبدياً ابتسامة باهتة، وتابع يقول:

- فقد أزفت شمسهُ على الغُروب.

وفي محاولة منه لإبعاد شبح التشاؤم، قال ضياء:

- أعتقد أنَّ العمر، في عصرنا الحالي، بات مجرد رقم.

وأضاف وهو يبتسم:

-واني لأشعر إنني وإياك، سنعيش الف عام أخرى، فلا تقلق لأمرٍ كهذا، إذ لا وجود للموت بالمعنى الحقيقي للكلمة، وسنتحاور في مدلولات ذلك من الناحيَّة العلميَّة، في وقت لاحق، إن أتيحت لنا الفرصة.

ابتسم المواطن رقم 13، مبدياً غبطته من الاحتمالات المتفائلة، التي استمع إليها، وبدوره كان ضياء قد ارتشف رشفة من القهوة، التي قدمتها له عفاف، وهو لا يزال ينظر في عيني المواطن رقم 13، فتابع يقول:

-ولكن اسمح لي يا سيدي أن أسألك، فثمّة ما يشغل بالي فيما يخصك، والتمس منك توضيحه، اذا كان ذلك ممكناً.

اتسعت حدقتا علي الراعي، وهو ينظر إلى ضياء بفضول، بينما ابتسامة حزينة رانت على ثَغره، وإذ أدرك مغزى السُؤال قال:

-أعتقد أنّكَ تقصد حكاية المواطن رقم 13؟

وبعدما ارتشف ضياء الماء بهدوء، قال مُنفعلاً:

- بالضبط يا سيدي، بالضبط ذلك ما أنشد معرفته من حضرتك.

بدا علي الراعي غارقاً في ذكرياته، وهو يستعيد الماضي، الذي نأى عنه بعيداً، دون أن يتمكن من نسيانه، ثم بهدوئه المعهود، وصوته المتهدج قال:

- فلتعلم إذاً أنَّه على الرُّغم من تقلدي مناصب حسّاسة في الدّولة، لم أكن شريكاً في أيَّة قضية اختلاس أو فساد، وما تسببت، طوال خدمتي، بأي ظلم لأي كان، ولم يزل وجودي في حزب البَّعث، مُرتبطاً بالمبادئ المُثلى، التي نشأنا عليها منذ أيام النضال السري، حيث كان للموقف، حينذاك، ثمناً يتوجب دفعه، في كثير من الأحيان دماً، ولهذا بالذَّات لم يكن في حزب البَّعث سوى

المُؤمنون بمبادئه، القادرون على التضحية والبذل، في سبيل تحقيق أهدافه ومبادئه السَّاميَّة.

وهذا الذي ميزنا نحن الرّعيل الأول من الحزبيين، عن مُعظم الأجيال، التي تعاقبت بعدنا، من الذين انتهز البعض منهم، فرصة وجوده في الحزب، للبحث عن المغانم.

ومع ذلك، فإنني لم أزل على اعتقادي الرَّاسخ بأن الوضع الرّاهن، بالرّغم من كلِّ سلبياته، هو من الأوضاع المُمكنة أفضلها، في الزَّمن الحاضر.

ففي ظلّ مستوى تطورنا، الاجتماعي الاقتصادي المتواضع، باتت البدائل المُمكنة، تمثل نكوصاً نحو الخلف، فالأصوليَّة الإسلامية، التي اشتهرت بالعنف والتكفير، وتصفية خصومها بلا رحمة ولا شفقة، كما يحصل الآن، ليست حلاً، ولن تكون، وما الحرب الطائفية، سيئة السمعة، الدائرة الآن على أرضنا سوى شاهد على ما أقول.

أما التبقعات الحزبية، التي تدَّعي العلمانية، فلا يُمكنَها على المدى المنظور أن تشكل بديلاً يبشر بمستقبل أفضل، خصوصا وأنَّ تلك الأحزاب قد تعرضت إلى حالات من الانقسام المُستمر، وبات

همها يقتصر على اجترار التنظير المُحنَّط، فأضحت أحزابا فاشلة، في تحقيق آية مكتسبات لجمهورها. خصوصاً وقد سَرت إليها عدوى الفساد والاستبداد، فباتت تقدس الأفراد من قادتها، وجعلت من الماركسيّة ديانة أصوليّة جديدة، كما الأصوليات الإسلاميّة، التي جمَّدت رسالة النبي مُحمد، فجعلتها تعيش مُنعزلة مُنغلقة، خارج إطار التاريخ والعصر.

تنحنح علي الراعي، وازدرد الماء من كأس أمامه، ثمَّ تابع يقول:

- وما تقاعست يوماً عن تناول سلبيات الحكومات المتعاقبة بالنقد البنَّاء، من خلال وظيفتي كمحرر في الصُّحف المَحلية، التي توليت في زمن ما مهمة الإشراف على بعضها، ففي مقالاتي اليوميّة انتقدت السلبيات بجرأة، وأشرت إلى الأخطاء تلميحاً، وتصريحاً، ربما أكثر مما كان متاحاً لي من الحريّة، مُغامراً بفقد موقعي في أحيانٍ كثيرة، وما زلت إلى يومي هذا مُعارضاً لأخطاء السلطات المُتعاقبة، بما فيها السلطة الحالية.

انثنى ضياء ليرتشف رشفة من كوب قهوته ثم قال متسائلا:

- رائع ما تفضلت به يا سيدي، ولكنني أتساءَل عن علاقته بحكاية المواطن رقم 13؟

ابتسم علي الراعي ابتسامة تنم عن عمق الألم الذي يعتمل في داخله، ثمَّ أسند يده اليسرى إلى متكأ الأريكة، بينما أسند ذقنه، إلى إبهام وسبابة يده اليمنى، ومحدقاً في عيني ضياء تابع يقول:

- على رسلك يا صديقي، فمن المؤلم أن كلّ تاريخي النضالي، الحافل بالمروءة والاستقامة، لم يشفع لي، إذ ما لبثت أن تعرضت للوشاية من أصحاب الغايات والمصالح الشخصيَّة، والمؤلم أن هؤلاء كانوا من رفاقي في الحزب والدّولة، فما أن وقفت حجر عثرة بينهم وبين هدر المال العام، حتى تكثفت وشاياتهم المُغرضة ضدي، هؤلاء السّفلة، الذين اعتمدوا على مقالاتي في الصُّحف، كدليل على معارضتي للسلطة الحاكمة.

إلى أن صحوت ذات فجر على قرع قوي على باب شقتي، وحينما فتحت الباب، وجدت خلفه رشاشاً موجهاً نحو صدري مُباشرة، كانت دورية أمنية مُسلحة، وأُمرت بالتنحي، فدخلوا شقتي عنوة، ليقوموا بتفتيشها على نحو دقيق، وترويع زوجتي وأبنائي، ثم ساقوني، تحت جنح الظَّلام، كما يساق مُجرم حقيقي، وكم كان ذلك مؤلماً

على نحو فظيع، إذ أمام زوجتي وأطفالي كنتُ أُقاد ذليلاً مكبلاً بالأغلال، أنا المناضل البعثي الشريف.

ووسط مناخ شتوي قارس البرودة، أودعوني في زنزانة انفرادية تحمل الرقم 13، وقد كان طول تلك الزنزانة يقارب المترين، وعرضها حوالي متر واحد، وفي زاويتها القريبة من الباب حفرة مستديرة، كانت بمثابة مرحاض عربي، وفي صدرها قاطع خشبي عرضه حوالي نصف متر، بينما تُضاء إضاءة اصطناعية، ليلاً ونهاراً، بحيث لا يمكنك، أثناء مكوثك فيها، تمييز مرور الوقت.

وليس في جدرانها أية كوى، أو نوافذ، في حين ينتهي جدارها الطويل بباب من الفولاذ، تتوسط ثلثه العلوي نافذة محمية بشبك من الفولاذ المجدول، تطل على ممر طويل ضيق، تتخلله زنازين أخرى مشابهة.

وقد احتُجزت في ذلك الوضع المُزري قرابة شهر، فكنت كلَّما طلبني المُحقق يستدعيني الخفير المُكلَّف بحراستي، عبر شبك الفولاذ، قائلا:

- رقم 13 إلى غرفة التحقيق.

ثم أسمعه يدير مفتاح قفل زنزانتي، فينفتح الباب الفولاذي الثقيل، بصرير يبعث على الاشمئزاز، فأصدع لأوامر سجاني، الذي كان يضع عصابة سوداء على عيني، ثم يجرني من يدي كما تُجر البهيمة، إلى غرفة المُحقق.

بدا على وجه علي الراعي معالم ضيق وألم، وهو يتذكر ما قاساه، وبعدما نظر بحياء إلى وجه عفاف، التي كانت ظلال التعاسة قد غزت وجهها الملائكي، وفاضت عينيها الساحرتين بالدموع، تابع المواطن رقم 13 يقول:

-وخلال وجودي في حضرة المحقق، الذي كنت أخمن من خلال صوته، أنَّ عمره لا يتجاوز عمر ابني البكر علاء، كان الوقت يمر ثقيلاً، فما من تهمة يمكنهم إلصاقها بي، كما لم يكن لدي ما أعترف به، والأسوأ من هذا أنَّ ذلك المحقق لم يكن يستجيب لرغبتي، حينما يطول زمن التحقيق، وأطلب منه السماح لي بالذَّهاب لقضاء حاجتي الطبيعية، فكان يقهقه بطريقة غبية، ويأمرني بالبقاء، متذرعاً أن ليس لديهم خدمات تؤدي غرضي. فخمنت أنَّ في ذلك أسلوباً يتَّبعه للإمعان في إذلالي، وصرت أشعر حينها وقد امتلأت مثانتي، وأنا عاجز عن إفراغها، أنني فقدت كامل إنسانيتي.

ارتشف علي الراعي رشفة من كوب قهوته، وتابع بابتسامة صفراء تعبر عن الألم المُمض، يقول:

- ومن يومها أصبحت أعتبر نفسي في وطني، لست أكثر من مجرد رقم، هو رقم زنزانتي، فأطلقت على نفسي اسم المواطن رقم 13.

سأل ضياء وقد بدت على وجهه علامات تأثر بالغ:

- اعذرني، ولكن كيف انتهى بك الأمر، كيف خرجت سالماً من ورطتك تلك؟

تنهد علي الراعي تنهيدة طويلة، ثم زفر الهواء ببطء، وقال:

- حصل ذلك بمحض المُصادفة السَّعيدة، إذ حينما افلسوا من إمكانية تلفيق تهمة لي، تم تحويلي إلى فرع أمني آخر، وهنالك صادفني الحظ، إذ كان الضَّابط الذي تولى مهمة التحقيق معي، هو أحد تلامذتي، حينما كنت مدرساً في ثانوية زكي الأرسوزي، بالعاصمة دمشق، فاستطاع أن يُنصفني، ويُخرجني من تلك الورطة، عبر كتابة دراسة مَوضوعيَّة عني، إلى أعلى الجهات القياديَّة في الدّولة، وهكذا تم الإفراج عني، وفيما بعد، نلت التكريم تلو التكريم من القيادة العليا، على جهودي المُخلصة في خدمة الوطن.

كانت ملامحه تنم عن التأثر الشديد، حينما ارتشف ضياء رشفة من كوب قهوته، وعقَّب قائلاً:

- قصتك تبعث على الألم في نفس كل إنسان شريف، ولكنني أُدرك، أنها ليست بالتجربة الفريدة من نوعها، فقد باتت تتكرر كثيراً، بهدف الضغط على الشُرفاء من أبناء الوطن، حتى لو كانوا على الحياد، يبدو لي أن ثمَّة من يتعمد الإساءة إلى الحزب والدّولة، عبر استخدام مثل هذه الأساليب.

رد علي الراعي بعدما تنفس الصعداء:

- نعم، هنالك الكثير من القصص المشابهة، وهذا ما جعل الفجوة تتسع، بين الحزب وجماهيره، من المُخلصين للوطن والثورة، فتسللت، نتيجة لذلك، العناصر الانتهازية، من ذوي الغايات والفاسدين، إلى مواقع ذات أهميّة في الحزب والدولة، وما نعانيه الآن من حرب هدفها تمزيق الوطن، ليس سوى نتيجة منطقية لتلك الأخطاء المُتراكمة في إدارة البلد، على مدى أكثر من خمسين عاماً.

كانت عفاف أثناء ذلك قد قدمت أطباقاً من الحلوى بالشكولاتة، وبعدما تناول ضياء قطعة منها، ومضغها جيداً توجه بالشكر إلى عفاف، ثمَّ عقب على كلام علي الراعي قائلاً:

- نعاني من مُعضلة مُزمنة، هي افتقارنا إلى حكومة وطنيّة، يكون همها تطبيق القانون، وفصل السِّياسة عن الإيديولوجيات ذات المصالح الفئوية الضيقة، بما فيها الدِّين، علَّنا نتمكن من الاستفادة من كل الطاقات الخلّاقة للتكنوقراط المُحايدين، بهدف تحفيز تطورنا المادي. وبالتزامن مع ذلك يلزمنا إطلاق الحريات بهدف التنوير، بما يسمح للشُرفاء من المُثقفين غير المؤدلجين، بالانخراط في المعركة الاجتماعية، لتحقيق التغيير الاجتماعي المنشود، كي نتجاوز هذا الاجترار الأحمق المتوارث لتراث الدَّولة العباسيّة، الذي رافق مرحلة انحطاطها.

فجمودنا الحضاري بات المصدر الأساس، لتزعم التيارات الأصوليّة، لأي حراك شعبي ينادي بالإصلاح السياسي والاقتصادي، بهدف حرفه عن أهدافه الحقيقية، وتحويله إلى صراع طائفي، كما نشاهد الآن في هذه الحرب القذرة.

بدا الاهتمام جلياً على المواطن رقم 13 فتناول رشفة من فنجان قهوته، ثم قال:

- أؤكد على ما تفضلت به عزيزي ضياء، فلا بديل عن دولة المؤسسات، وسيادة القانون، ومنح الحرية للفكر التنويري، إذا شئنا مجابهة التيارات الأصوليّة، التي تفشت في مجتمعنا على حساب

الرَّصيد الاجتماعي لحزب البعث، وبقية أحزاب الجبهة الوطنيَّة، التي فشلت جميعها، في تحقيق أي من أهدافها المُعلنة. إنَّ التراخي في تطبيق المبادئ، قد شكلَّ سبباً إضافياً لانكفاء حزب البعث، وشركائه من أحزاب الجبهة، وإخلاء الكثير من مواقعهم، للقوى الظّلاميّة، التي بات لها أذرع وأنصار، في صفوف حزبنا، عدا عن تغلغلهم الواسع في المجتمع والدولة.

كانت عفاف، التي جلست على كنبة قبالة والدها وضياء، تتابع حديثهما باهتمام، فاستأذنتهما وقالت:

- اسمحوا لي بتعقيب بسيط، فيما يتعلق بحريَّة التعبير عن الرأي، فذلك قد يجعلنا، في الوقت الرَّاهن، نواجه الكثير من التحديات، دفعة واحدة، إذ لا يمكن لمجتمعات مكبوتة، على مرّ عصور طوال، أن تُعطى الحريّة بمثل هذه البساطة والسرعة، فإجراء كهذا، سيجعلنا نغرق في حالة من الفوضى العارمة، فقد أعتدنا في هذا الشرق، عبر زمن طويل، على الضبط القسري، والانقياد الأعمى إلى من هو أقوى، وهنا مكمن الدّاء، ولا بد والحال كذلك، من تخفيف القيود على الحريات، بالتدريج.

انظروا مثلاً إلى بنية الأسرة الشّرقيّة، وستجدونها بنية ذكوريّة استبداديّة، على ذات

النمط السائد في حكومات هذا الشّرق، ولو حاولنا، من غير تدبر ورويّة، الانتقال بها سريعا إلى الوضع الديمقراطي، لوقعنا في مشاكل لها أول، وليس لها آخر، مع كثير من القوى الفاعلة في مجتمعنا، وعلى رأسها من يسمون رجال دين وأتباعهم.

فكيف لنا والحالة كذلك أن نُغير مجتمعاً بكامله، فنذهب به سريعاً في الاتجاه المُعاكس، حينها سوف نقع في مشكلات، ربما ما نعانيه الآن، ليس أكثر خطراً منها.

تناول ضياء رشفة من كأس الماء التي كانت أمامه، ثم قال معقبا على ما قالته عفاف:

- إن ما أتيت به، سيدة عفاف، يمثل من الناحية الظاهرية طرحاً عقلانياً للمسألة، التي نُعاني منها، ولكن بالمقابل مشاكلنا ستزداد تفاقماً، مع الاستمرار في قمع قوى التنوير، فبغير إطلاق الفكر التنويري، ليغير واقعنا، لن نتمكن من تحقيق أيَّة مُكتسبات فعلية حتى على صعيد الأسرة، التي أتيت على ذكرها.

انظري كم هو الميزان مُختل ضدَّ مصلحة قوى التنوير الوطنية، فمكتباتنا العامة، منذ عشرات السنين، تغصّ بشتى كتب الفقه الإسلامي، الذي

أنتجته الخلافة العباسية، وفقهائها المتملقين المُنتفعين من فقههم، في مرحلة انحطاط الدولة العباسية، واستيلاء السلاجقة الأتراك على بغداد، كما أنَّ الحرية متاحة، أيضاً، للمدارس الدينية الفقهية التي انتشرت بشكل واسع، وهي تبث الفكر الظلامي التكفيري، المُناهض للإنسانية.

وفي الوقت ذاته تُلاحق، وتُمنع من النَّشر، مُعظم الكتب التي تسعى إلى التنوير، أو إلى عقلنة التراث، لا بل طالما تعرض التنويريون للاغتيال على يد الظلاميين كحادثة اغتيال الدكتور فرج فوده في مصر، فالمعركة لا بد من خوضها ضد هؤلاء التكفيريين، عاجلا أم آجلا، ولا مفر لنا من التنوير لتحقيق ذلك.

وبالتنوير وحده، سنتمكن من تكوين وعي جديد يُمهد لنهضة عقلية وفكريّة، تُمكننا، فيما بعد، من تجاوز ركودنا الحضاري، بهدف بناء وطن منيع آمن، والمساهمة مع الأمم الأخرى في نهضة البشرية وتطورها.

وما هذه الحرب الظلاميَّة العمياء، التي نعانيها سوى برهان أكيد، على ما يفعله غياب العقلانيّة والتنوير، من الساحة الوطنيَّة.

وبالاهتمام ذاته قال المواطن رقم ١٣ بعدما ارتشف رشفة من كوب قهوته:

- أنَّ التذرع بأن الانفتاح على العقل يُذهب الدِّين، ويؤدي إلى الكُفر، هو افتراء ماكر، ممن يسمون فقهاء، وهدفه إظهار ديننا مهزوزا من الدَّاخل، فلا يحتمل نقداً يصحح مساره، خشية أن ينهار، وهو افتراء يُبطن غير ما يُظهر، فهدفه الحقيقي محاربة العقل، للإبقاء على انقيادنا الأعمى للجهلة والفاشلين، ممن يدَّعون أنّهم فقهاء ورجال دين، على الرغم من وصية نبينا الكريم بأنّ "لا كهانة في الإسلام"، أي لا وجود لرجال تخصصهم شرح وتفسير الدين للناس، فالله الذي أتم رسالته لنبيه الكريم بقوله:"اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا"، لم يتح حتى للنبي ذاته، سلطة الإفتاء أو تفسير القرآن، فالعلاقة باتت عمودية مباشرة ،بين المسلم وخالقه، ولا تحتاج إلى وساطات كنسيَّة كما في المسيحية.

تناول ضياء رشفة من القهوة، ثم قال:

- استخدم بنو أمية الذرائع ذاتها، فحاربوا التيارات العقلانيَّة القدرية، التي قالت بحرية اختيار الإنسان لما يقدم عليه من أفعال، وإلا لبطل أمر حسابه في الآخرة.

واتبعوا مذهب الجبريَّة الذي يُبرر لهم سلوكهم الدموي تجاه خصومهم، على "أنه مُقدَّر من عند الله على أولئك الخصوم"، وليس لبني أمية اختيار في تنفيذ مشيئة الله، التي هي مشيئتهم بالواقع.

هذا التضليل كان يهدف إلى تبرير ارتكاب الجرائم ضد كل مُعارض لسياساتهم الاستبداديّة التي حولت الإسلام إلى نظام ملكي متوارث، لصالح تأبيد دولتهم، التي ما استمرت، بالرغم من ذلك، لأكثر من تسعين عاماً.

فما لبثت عفاف أن أدلت برأيها تقول:

- في تاريخنا نقاطا مضيئة لم تزل تثير اعتزازنا، يجب أخذها بالاعتبار، فقد شهد عهد الخليفة العباسي المأمون نهضة علمية وثقافية وفكرية كُبرى، فكان ذلك عصراً ذهبياً لحضارتنا العربية الإسلامية.

ارتشف ضياء الماء من كأس أمامه ثم قال مبتسماً:

- أحسنت سيدة عفاف، حقاً لقد ازدهرت في عهد الخليفة المأمون بن هارون الرَّشيد، الدَّولة العباسيّة، وأعطت أفضل ما لديها، والسبب في ذلك حركة المُعتزلة التي اعتمدت العقل، بدلاً من النَّقل، كمعتقد إسلامي ينادي بوجوب استخدام العقل في تفسير الدين، فكان المعتزلة يرون

وجوب معرفة الله، معرفة حقيقية، بالعقل، وأنه "إذا تعارض النَّص مع العقل أخذوا بالعقل لأنَّه أصل النَّص"، و"الحسن والقبيح يجب معرفتهما بالعقل". وقد ناصرهم في ذلك الخليفة المأمون الذي اعتنق عقيدتهم، وجعل منها عقيدة لدولته، فازدهرت، نتيجة لذلك، حركة الترجمة للكتب العلمية الإغريقية في الطب والفلسفة والطبيعة والرياضيات، حتى أغتنى في عهده العُلماء والمُترجمين.

وقد كان المأمون شديد الولع في طلب العلم والمعرفة، إذ اشتهرت عنه حادثة رواها ابن النديم في كتابه الفهرست بأن المأمون قد روى: (رأيت في منامي كأنَّ رجلاً أبيض اللون مُشرباً بحمرة، واسع الجبهة، مقرون الحاجب، جالس على سريري، وكأني بين يديه، وقد مُلئتُ منه هيبة، فقلت: من أنت؟ قال: أنا أرسطو طاليس، فسررت به، وقلت: أيها الحكيم أسألك؟ قال: سل ما شئت، قلت ما الحسن؟ قال: العقل، قلت: ثم ماذا؟ قال: ما حسَّنه الشَّرع، قلت: ثم ماذا؟ قال ما حسُنَ عند الجمهور، قلت: ثم ماذا؟ قال ثمَّ لا ثمَّ).

يشهد هذا للمأمون أنه كان مُغرماً بالثقافة العقلانيَّة، وبعلوم الإغريق الأوائل، فاشتهرت سنواته العشرين التي قضاها في الحكم، بأنه كان

لا يؤثر مذهباً من المذاهب، أو جنساً من الأجناس، بل أباح الاستخدام في مناصب الحكومة، لجميع المُتعلمين على اختلاف دياناتهم، كما أنشأ مجلساً استشارياً يتألف من مُمثلي جميع الطوائف، وقد ضمَّ المُسلمين والمسيحيين والصابئين واليهود، على حد سواء، وكان بلاطه يعج بأهل العلم والفلاسفة.

فكان، تقديم العقل على النقل، سبباً لازدهار الدولة العباسية في عهده.

وللأسف، فقد تمت محاربة تلك النَّهضة العقلانيَّة، والقضاء عليها، في عهد ابن أخيه الخليفة العباسي المتوكل، الذي حارب المُعتزلة، وسجنهم، وأحرق كتبهم، وعذبهم، وقضى عليهم، وعلى فكرهم، مُقرباً منه أهل الحديث والنقل، مما تسبب في بداية انهيار الدولة العباسيّة، إلى أن وقعت في حضن السلاجقة الأتراك، الذين تابعوا ذلك النهج المُدمر للعقل، فساهم ذلك في تأبيد تخلفنا، الذي لم نزل نتوارثه، جيلا إثر جيل.

وما نشهده من تعصب أعمى، في هذه الحرب القذرة، التي تدور على أرضنا، ليس سوى برهان أكيد على الضرر الفادح لإهمالنا الثقافة العقليَّة، على مستوى الدِّين الإسلامي.

تناول علي الراعي رشفة من فنجان قهوته وقال:

-يُفترض بالدِّين أنَّه قد وجد لخدمة الإنسان، وليس الإنسان لخدمة الدِّين، هذا ما قال به السَّيد المَسيح: "السبت إنما جُعل لأجل الإنسان لا الإنسان لأجل السبت"، ولكننا للأسف لم نزل نجد من يستغلون الدِّين لاستعباد الإنسان، ومثل هؤلاء، وجدوا على مر العصور، وعلينا أخذ العِبر مما يحدث.

ابتسم ضياء بمرارة، وقال:

-تماماً يا سيدي، ويبدو أننا لم نتعظ، حتى بعد أن غرقنا في الدماء.

أمَّن علي المصطفى على كلام ضياء، وفي هذا الوقت، اعتذرت عفاف بلباقة، بأنَّها ستذهب إلى مطبخها لاستكمال إعداد طعام الغداء، مؤكدة على ضياء أن يبقى ليشاركهم طعامهم، وكذلك أصر علي الراعي على ذلك، فقبل ضياء دعوتهم شاكراً راضياً.

استمرت جلسة السَمَر بعد الغداء، حتى اذا حلَّ المساء، استأذن ضياء بالمغادرة إلى المنزل الذي كان قد استأجره.

وحينما وصل منزله، راح ضياء يُفكر بطريقة تُمكنَّه من التحدث إلى عفاف، على انفراد، فأرسل لها عبر الواتس أب رسالة، قال فيها:

- لدي رغبة مُلحة لأن ألتقيك على انفراد، لأمر هام، أوَّد معرفة رأيك فيه. أدعوك بعد غدٍ السبت إلى الغداء، في منتزه الوراقة، في الثَّانيَّة بعد الظهر. أتمنى أن تلقى دعوتي قبولك.

ضياء

كانت عفاف ترتشف متة المَساء، على فرندة غُرفتها، المُطلة على الشّارع، حينما وصلتها رسالة ضياء، فابتسمت بخبث أنثى أدركت الغرض من تلك الرسالة، وأجابته برسالة نصيَّة قالت فيها:

-إنَّه لمن من دواعي غبطتي قبول دعوتكَ، انتظرني السبت على موعدك.

عفاف

كان علي الراعي قد غادر منزل ابنته مساء يوم الجمعة.

وفي الساعة الثانية من بعد ظهر يوم السبت الموافق للثاني عشر من حزيران كانت عفاف في منتزه الوراقة، فألفت ضياء في انتظارها، إلى طاولة تقع في الشمال الغربي من المنتزه، وبيده باقة من أزهار

التوليب التي يغلب عليها اللون الأحمر، بينما توسطتها ثلاث زهرات من اللون الأبيض، ليعبر لها عن مدى حبه وإخلاصه.

قبلتها منه عفاف راضيَّة، وهي تبتسم إذ أدركت الرسالة. فطلب ضياء قائمة الطعام وحينما أحضرها النادل، اختارت عفاف الكبة المشوية والفتوش إضافة إلى طبقين من الكبسة وطبقين من سلطة الخيار باللبن.

كانت أشجار الكينا والحور المُعمرة تحيط بهما من كل جانب وقبالتهما بَحرة جميلة، وفي الجوار نبع ماء يصب في ساقيَّة، فتبدو مياهه الرقراقة كأنَّها لجيناً يجري.

في هذا الجو الخلّاب، بلا مواربة، قال ضياء:

- أتيت إلى مصياف لأجلك أنت، أعرض عليك الحبّ والزواج، فهل أعود أم أبقى؟

وبعفويتها المعهودة، ابتسمت عفاف، ابتسامة غامضة، وقالت:

- صراحتك تثير إعجابي، وبالتأكيد أنت تنال إعجابي، لا بل لعلني ما صادفت نبيلاً كأنت.

أعدك أن أُفكر بالأمر ملياً، وأبلغك قراري .

تقبل ضياء الكلام المنطقي لعفاف، وقال:

- لك ما تشائين، ولكن تذكري دائماً، أنني سأظلّ الصديق، الذي يهمهُ أمرك، أكثر من حياته.

وإذ تذكرت عفاف حبها، الذي لم يخبُ بعد، لسمير الآغا، بات قلبها مشتت بين حبها له، وحب ضياء لها، فغصت بدمعة، دارتها سريعاً، ثمَّ تصنعت ابتسامة امتزج فيها الأسى بالرضى، وقالت:

-ضياء، يا عزيزي: أعدك بأن أظلّ وفية لعهد صداقتنا ما حييت.

وبعد أن تناولا طعام الغداء سوياً، وشربا القهوة، غادرا المُنتزه.

ودَّعها ضياء قرب شقتها، ثم عاد وحيداً إلى المنزل الذي كان قد استأجره، فأخذ أمتعته، وعاد إلى مدينة سلمية، منهياً زيارته إلى مصياف، على أمل أن تُثمر تلك الزيارة، عن الفرح الذي، كان، ولم يزل، ينتظره.

(13)

تميز عام 2014 بدخول، ما سمي تنظيم الدولة الإسلامية، على كافة محاور الأزمة السوريَّة بقوة، بعد أن سيطر على مدينة الرقة، فبدأت فظائعه بالانتشار، ذبحاً وسبياً وتشريدا وتكفيراً، للسوريين بمن فيهم الكثيرين من أهل السنة والجماعة.

وقد سبق للعصابات، الإسلامية التكفيرية المُسلحة، أن تفلتت من الأعراف والقوانين الأخلاقية كافة، فراحت تسيد وتميد على طول البلاد وعرضها، فأعادت، في القرن الحادي والعشرين، وقائع مماثلة تماماً للغزوات والفتوحات الإسلامية، فسُلبت الأرزاق، وسُبيتْ النِّساء، وتم القضاء على الحرث والنَّسل، خصوصا في المناطق التي سيطر عليها تنظيم الدولة الإسلامية، الذي افتتح أسواقاً للنخاسة، لبيع الأطفال والنساء، كعبيد وجوارٍ.

وبات الذبح على الهوية أمراً شائعا، فالحرب اتخذت وجهتها كحرب إفناء بين طائفتي السنة والشيعة الإسلاميتين، اللتين راحتا تجتران الأحقاد التاريخية المتراكمة بينهما على نحو متوحش، وقد تسلل أنصار السنة إلى الأراضي السورية عبر الجارة تركيا، التي منحت لهم كلّ التسهيلات اللازمة لعبورهم، بهدف الالتحاق بتنظيمات القاعدة، وتنظيم الدولة الإسلامية، بأوامر مباشرة من الرئيس التركي

رجا الطيب أردوغان، الذي اعتبره أنصار السنة خليفتهم، أما أنصار الشيعة من أتباع خليفتهم الإيراني علي خامنئي، فقد دخلوا عبر كلّ المعابر الرَّسميّة بتسهيلات من الحكومة السورية.

فأعادت المعارك الطاحنة بين الطرفين، إلى الأذهان، ذكرى موقعتي الجمل وصفين، على نحو أكثر شراسة ودمويَّة، مما دفع بغالبيَّة الشباب، من أبناء الوطن، إلى مغادرة البلاد، خوفاً من خطر الموت الداهم المُحدق بهم، من كلِّ حدب وصوب.

وفي العام ذاته بلغت عفاف الراعي عامها الرابع والثلاثين، فكانت لا تزال في أوج تألقها، ونضارتها، ونضج أنوثتها.

ولكنَّ آمالها بعودة سمير الآغا باتت في طريقها إلى التلاشي، فكانت تلك انتكاسة كبيرة تعرضت لها، فتحملت آلامها متذرعة بالصبر.

كما فقدت والدها المواطن رقم 13، الذي تم اختطافه من قبل مجهولين، حينما كان في طريقه إلى العاصمة دمشق، لحضور مؤتمر للحوار الوطني، فمنذ بداية الأزمة، كان اسمه مُدرجاً على قائمة المُنادين بضرورة إيجاد حل سياسي للأزمة السوريَّة، بغية سحب البساط من تحت أقدام الأخوان المسلمين، بهدف إنقاذ البلاد من الضياع الكامل.

أما أخوها علاء الراعي، الحائز على درجة الإجازة في الرياضيات من جامعة دمشق، فقد سافر إلى قطر ليعمل هنالك في حقل التعليم الثانوي، ثمَّ انضم إلى تيار التنظيم الدَّولي للإخوان المُسلمين، وافتتح له منبراً على الشبكة العنكبوتية، تحت اسم "الرابطة الإيمانيَّة"، وراح يُحرِّض، من خلال منبره، على الحكومة السوريَّة وأنصارها، فأصبح من الرؤوس المطلوبة لتلك الحكومة.

ولكن علاء قد تمكن من إسداء خدمة، غاية في الأهميّة، لأخته عفاف الراعي، بأن أتاح لابنها باسم وابنتها باسمة فرصة للهروب من جحيم الحرب الأهلية، والذهاب إلى قطر، للعمل والدراسة، تحت رعايته وإشرافه. وهكذا ظلت عفاف وحيدة تكابد آلامها، عزلاء إلا من أمل بمعجزة تعيد إليها الفرح الذي طالما حلمت به. ولأنّ حبها لسمير الآغا لم يفتر، ولم يهن، فقد كانت مستعدة لأن تغفر له كل شيء، حتى الخيانة، مقابل أن يعود، ولأنَّها لا تعلم له مكاناً لتسافر اليه وتلتقيه، فقد بذلت محاولتها الأخيرة معه، برسالة نصيَّة، عبر الواتس أب قالت فيها:

إلى من كان، ولم يزل، حبي الوحيد سمير.

تجشمت من المصاعب، والمتاعب ما لا يمكن لمخلوق أن يتحمله، لإنقاذ حبنا من الضَّياع.

وبالرغم من أنَّ تجاهلك لحبِّي قد بات مؤلماً، فأنا لا زلت على عهدي معك، مُستعدة لأن أغفر لك كلّ هفواتك، مهما عظُم شأنها، على أن تعود، كما كنت لي، الحبيب الوفي، لننعم معاً بحياة طالما حلمنا بها، فهل تعود؟ لا زلت أنتظرك.

المشتاقة عفاف الراعي

في 15 شباط لعام 2014.

فما كان من سمير الآغا إلا أن كتب إليها عبر الواتس أب رداً، كان له وقع الصاعقة، على روحها، قال فيه:

الغالية عفاف

يؤسفني أنني ما عدت جديراً بثقتك، ولا بحبك. فاعذريني إذ بات الواقع يجرفني في تياره، كما لو أنِّي زورق تائه، وسط محيط متلاطمة أمواجه، مسلوب الإرادة، آيل إلى الغرق.

ستظلين في ذاكرتي طيفاً جميلاً، وهبني ذات زمن سعادة غامرة، فما كنتُ أهلاً للاحتفاظ بها. وداعاً عفاف، أنا في غاية التعاسة.

سمير الآغا

في 20 نيسان لعام 2014.

طويلاً بكت عفاف، وهي تعيد قراءة رسالته، المرة تلو المرة، فلم تجد فيها بارقة أمل، يرتجى منها فرجاً. وحينما عجزت عن إيجاد تفسير منطقي لما يحدث، قررت أن تنسى ذكرياتها مع سمير الآغا، إلى الأبد.

وعلى الجانب الآخر، ففي العام الفائت 2013 حصلت لكوثر الأسمر أحداثاً مفجعة، فقد توفي والدها رشيد الأسمر راكعاً أثناء أدائه لإحدى صلواته في جامع مدينته مصياف، فاعتبره العامة من أولياء الله الصالحين، إذ كتبت له تلك النهاية المُشرِّفة، بينما زوجته زينب المحمود، التي كانت قد أصيبت بمرض عضال خلال حياة زوجها، فقد توفيت بعده بوقت قصير. أما أخوها العميد أحمد الأسمر، الذي كان يقاتل جيش الفتح الإسلامي، على جبهة معسكر المسطومة في إدلب، فقد تعرض وكتيبته للحصار، من قبل هؤلاء الإسلاميين التكفيريين، وتمت تصفيتهم عن بكرة أبيهم، بلا رحمة ولا شفقة.

وفي أوائل أيار من عام 2014 كانت كوثر الأسمر قد وصلت، من أميركا، في زيارة خاصة لبلدتها مصياف، لحضور الذكرى السنوية الأولى لوفاة والدها ووالدتها، وبسبب اصطحابها لابنها رشيد الآغا، عرفت مدينة مصياف، لأول مرة، بقصة

زواجها من سمير الآغا، وانجاب طفلها منه. وتلقت عفاف ذلك النبأ، في الوقت ذاته، فكان له وقع الصاعقة على روحها، ولكنَّها كانت على قناعة تامة بأن ليس لكوثر الأسمر أي ذنب فيما يحصل لها.

وصادف، في تلك الآونة، أن تذكرت، كوثر الأسمر، صديقتها عفاف الراعي، التي طالما أمضت معها أياما ممتعة في بستان والدها رشيد الأسمر، وشعرت بالحنين لرؤيتها، فوجهت اليها دعوة خاصة لزيارتها، ولأن عفاف كانت تمر بظروف عصيبة حينذاك، استمهلت كوثر حتى نهاية الأسبوع، لتقوم بتلبية دعوتها.

في هذه الأثناء، حينما اسودت الدنيا في وجه عفاف الراعي، وكاد اليأس أن يهوي بها مهاوي الردى، تلقت رسالة نصية عبر الواتس أب من صديقها ضياء سعيد قال فيها:

صديقتي الغالية عفاف

أتمنى، بالرغم من كل هذه الظروف العصيبة، التي تمر بها البلد، أن تكوني بخير. وأخبرك أنني، منذ أسبوع، انتقلت إلى العاصمة دمشق للسكن والعيش فيها، فتركت خلفي ذكريات الماضي، باحثا عن حياة جديدة، بعيدا عن كلّ المُنغصات، التي تبعثها فينا حياتنا الرتيبة المُملة

في الريف. أتذكرك كثيراً، وأشتاق لرؤيتك، وإلى التحدث اليك.

أدعوك لزيارتي حينما تضيق بك السبل، أو في أي وقت آخر، ترتئين أنَّه يناسبك.

صديقك المشتاق ضياء سعيد

26 أيار لعام 2014

انتعشت عفاف، إثر قراءتها رسالته، وراحت تستعيد في مخيلتها علاقتها مع ضياء سعيد، فشعرت ببارقة أمل حقيقية، لاحت لها، في خضم هذا الظلام الدامس، فعقدت العزم أن تمضي في حياتها، متحررة من وهم حبٍّ قد انقضى، وبات مجرّد وهم وسراب.

وإذ كانت تعلم أنَّ ضياء لم يزل على وفائه لحبها، رهناً لإشارتها، كان يؤلمها، ويحز في نفسها، أنَّها باتت مُرغمة، على أن يكون ضياء خيارها الوحيد للخروج من حالة الضَّياع التي باتت تدور في دوامتها، بينما كانت ترغب في أن تهبه روحها، في ظرف آخر، تختاره بإرادتها، كمكافأة له على حبّه لها، فدمعت عيناها، ولكنَّها سرعان ما وجدت نفسها تتصل به عبر جوالها.

- مرحبا عزيزي ضياء

ودون ان يتمكن من إخفاء فرحته، رد ضياء:

- أهلا صديقتي عفاف، لو تعلمين كم اشتقت إليك.

بدت رنة الحزن جليَّة، في نغمة صوتها، حينما قالت:

- أنا في غاية التعاسة يا صديقي.

ولأول مرة شعر ضياء بضعفها، فامتلأ قلبه غماً، وقال:

- عفاف: أرجوك أحيطيني علماً بما ألم بك، فأنت الوحيدة، في عالمنا، التي لا يليق بها الحزن.

غصَّت عفاف بدموعها، وهي ترد عليه:

-ضياء، يا عزيزي، ثمَّة أمر لا يمكنني شرحه عبر الهاتف، ذلك غير ممكن، غير ممكن على الإطلاق.

فاندفع ضياء قائلاً:

-إذن فأنا قادم إليك في الحال.

كان الوقت متأخراً في ذلك النهار، والرّحلة من دمشق إلى مصياف، في ظروف الحرب الأهليّة، تحفها المخاطر، فردت عفاف، بعد أن كفكفت دموعها، وتصنعت الهدوء:

-أرجوك يا صديقي، لا داعي للعجلة، يمكنك أن تكون عندي في الصباح، إذا شئت.

وبعد أن تريث بالرَّد قليلاً، قال ضياء:

- كما تشائين، انتظريني إذن حوالي العاشرة صباحاً.

شكرته عفاف بحرارة، ثمَّ أقفلت الخط، ولأول مرة شعرت بالاضطراب يسري في كلِّ كيانها، وراحت تفكر اذا كان هذا الذي انتابها بتأثير من الحبِّ، فقالت بصوت مسموع، وهي تداري ارتباك ألم بها:

- ليكن حباً. ما المسألة اذا كان الأمر كذلك؟ أنا الآن متحررة من كل الارتباطات والعهود، ويحق لي أن اختار صديقاً، أو حبيباً، لا فرق لدي الآن، لا فرق.

وراحت دمعة تسيل على خدها المُوَّرد، فدارتها بظاهر كفها، ثم القت بجسدها الرشيق على سريرها، وغرقت في نوم محفوف بالآمال والأحلام.

وفي الصباح حينما قاربت الساعة العاشرة، كانت عفاف قد اختارت للقائها المرتقب مع ضياء، فستاناً أسود، ارتدت فوقه سترة ربيعيّة حمراء، ووضعت على وجهها الملائكي مكياجاً خفيفاً ضاعف من فتنتها.

وحينما قُرع جرس شقتها، هرعت إلى الباب تفتحه، غير مصدقة نفسها حين التقت عيناها الزمرديتان بعيني ضياء البنيتين الدافئتين، فعانقته بمودة وحبّ، ثم قادته، عبر صالونها، إلى غرفة المعيشة، حيث أعدت للفطور، طاولة عامرة بالمأكولات الشَّهيَّة، وبعدما أجلسته إلى جوارها، قالت وقد فاضت الدموع من عينيها:

- لم تشأ أن تتركني وحيدة لأحزاني، فأتيت لتثبت لي أنَّك الأكثر وفاءً من كلّ الذين عرفتهم في حياتي، آهٍ لو تعلم كم أنا الآن بحاجة إليك.

وحينما راحت الدموع تسيل بهدوء على خديها الموردين، احتضنها ضياء، وشرع يمسح دموعها براحتيه، ثم قال:

- حزنك لا أطيقه، اخبريني ما الأمر، إنَّ روحي تكاد تنفطر، إذ أجدك على هذه الحالة.

وبعدما هدأت ثورة عاطفتها الجامحة، تماسكت عفاف، ثمَّ قالت:

- أرجوك يا ملاكي، لا تنشغل كثيراً، ربما الأمر أبسط مما نتصور، أستطيع التحدث إليك، كما أتحدث إلى نفسي، ثمَّ فتحت هاتفها الجوال، وأطلعته على كلِّ الرسائل التي تبادلتها مع سمير الآغا، خلال الآونة الأخيرة، ثم التفتت إلى عينيه

مباشرة تنتظر ردة فعله، وبعدما انتهى من قراءة كلّ الرسائل المتبادلة بينها وبين سمير الآغا، لم يتردد ضياء، ولا لحظة واحدة، ليضمها إلى صدره، وهو يربت على كتفيها، ويقول:

- آه يا صغيرتي النقيَّة، صدقيني ما وجدت لك يداً في الذي حصل، فقد كنت وفيَّة لعهدك طوال الوقت، فالأجدر بك أن يغمر قلبك السرور، وليس الحزن.

قالت عفاف ودمعة تتدحرج على خدها فتحاول تداركها بأناملها العُنَّاب:

- الذي يحزّ في نفسي، أكثر من أي أمر آخر، أنني، ذات وقت، فاضلت بينك وبينه، دون أن أُدرك كم أنت ملاك، بالمقارنة مع أي رجل آخر، في هذا العالم.

قبَّل ضياء جبينها ثم قال:

- ما عاد مهماً تضييع الوقت في ندب ماضٍ انتهى، ستجديني إلى جوارك دائما، ورهن إشارتك.

وبعدما مضغت بأسنانها ناصعة البياض قطعة من قالب الكيك الذي كان أمامها، تذكرت تعاسة ما هي

فيه، فعانقت ضياء شابكة يديها حول عنقه وهي تقول:

- كم أنت نبيل، ونقي السريرة، فكيف، والحالة كما عاينتها الآن، تُقبل على حبِّ امرأة ما لجأت اليك إلا بعدما تلقت صفعة مؤلمة من حبيبها؟ بينما ركلتك بقدمها ذات لقاء، غير مكترثة بمشاعرك.

كلا يا ملاكي لا يمكنني مراوغتك، لقد قررت قرارا لا رجعة فيه، أن نظل صديقين، ولن أقبل لك أن تتلوث، بحب امرأة ساقطة مثلي.

قال ضياء، وعلامات الألم ترتسم على محياه:

- أمام عمق مُعاناتك وآلامك التي تجشمتِها طوال حياتك، أنا لا أساوي شيئاً. ويكفيني منك أن تظلي صديقتي، أمَّا أنا فسأظل أعبدك إلى الأبد.

فاضت مقلتاها الآسرتان بالدموع، تسيل مدرارة على خديها الموردين، وإذ غمر قلبها حبّ ضياء الخالي من الأثرة، باتت لفرط تأثرها، لا تدرك ماذا تفعل، فسجدت راكعة على قدميه، تقبلهما بنهم مجنون، وهي تتمتم:

- سأظل أعبدك طوال عمري، فأنت ملاكي وحارسي والهي، سنظل أصدقاء، سنظل أصدقاء إلى الأبد، أليس كذلك؟

ثمَّ راحت تنظر اليه بعينين ضارعتين، والدموع مدرارة منهما تفيض، وبصعوبة أنهضها ضياء، وراح يقبِّل عينيها وجبينها، وهو يقول:

- لا تجزعي يا صغيرتي، سنجد السبيل إلى سعادتنا ذات يوم، سنجده بالتأكيد.

بدت عفاف في غاية الارتباك، فضمها ضياء إلى صدره، وهو يربت على كتفيها ويخاطبها قائلاً:

- إهدئي يا ملاكي، ها قد دخلنا، منذ الآن، نفق تجربة روحيَّة فريدة، تجربة سيتكشف لنا فيها، من خلال تسامي روحينا، نور الإله.

طوقت عفاف عنقه بذراعيها البضتين، وراحت تُغرّد ضحكتها الآسرة، عبر الدموع، وهي تقول:

- أيها المجنون، ها قد بدأت تتحدث، كفيلسوف.

ابتسم ضياء بدوره، وتابع يقول:

- وجودنا، في هذه الحياة، ليس سوى لمحة عابرة، مُجرَّد لمحة، تَحفنا خلالها المَخاطر من كل حدبٍ وصوب، ومع ذلك علينا أن نفهم جوهر

هذا الوجود، لكي نحظى بالنَّعيم الحقيقي، من خلال الاتحاد بالخالق، عن طريق الحبّ.

ابدت عفاف مزيدا من الغبطة والحيوية وهي تستمتع بحديثه، فتناول ضياء رشفة من كأس الشاي، وتابع يقول:

- من غير الممكن أن نعلم، علم اليقين، إذا كان وجودنا، في هذا العالم، هو الوجود الحقيقي، أم أننا مجرد خيال في مرآة الطبيعة، أو صوراً لحقيقة خالدة، أكثر عمقاً مما نتخيل. فما نحن، في رأي العارفين، سوى ظلال للحق، فلا تفصلنا عنه سوى المسافة التي تفصل الظل عن صاحب الظل، فهو نحن، ونحن هو، وليس ثمّة فارق، من حيث الجوهر، بين الحق والخلق. فلتطمئن روحك التي هي قطعة من الرَّب، علك تجدين السكينة، وتنعمي بالهدوء، وتهنئي بالحبّ.

كانت عفاف قد راحت تغلي القهوة في ركوة إلى جوارها فقالت:

- حديثك ينير عالمي البسيط، ويستحوذ على قلبي وروحي، ولكن اسمح لي، قبل أن أنسى، أن أخبرك، أنني تلقيت دعوة من كوثر الأسمر لزيارتها في مزرعة والدها، فوعدتها أن أكون عندها يوم الجمعة القادم، فما رأيك أن ترافقني في هذه الزيارة.

ارتشف ضياء القهوة من فنجانه، وقال:

- يسرني أن أكون حيث تكونين، انتظريني يوم الجمعة، في التاسعة صباحاً.

شكرته عفاف على استجابته لدعوتها، ووعدته أن تُبلغ كوثر الأسمر برقم هاتفه، لتوجه إليه دعوة شخصيَّة خاصة.

ابتسم ضياء وقال:

-أمنيتي الأثيرة أن تفكري جدياً بالعيش معي في دمشق، وأعدك أن نظلّ، كما تشائين، مُجرد صديقين.

لم ترد عفاف، إنما كانت تنظر إليه بصمت، وترقبه بدهشة وهدوء، وابتسامتها الخلابة تطوف على ثغرها البديع، وحينها جذبها إليه، وقبل عينيها وجبينها، مودعاً، فبدا أنَّهما، قد دخلا بالفعل، نفق تجربة روحية لها أبعادها الكونية.

(14)

لم ينس ضياء وعده لعفاف الراعي بأن يزورا معاً كوثر الأسمر، وفي الموعد المحدد، الذي صادف يوم الجمعة في التاسع والعشرين من أيار، كانت عفاف وضياء على بوابة مزرعة المرحوم رشيد الأسمر.

وإلى طاولة مستطيلة، على ذلك التراس الممتد أمام المنزل الريفي، استقبلت كوثر ضيفيها بالترحاب، ودعتهم إلى الجلوس، ثم غابت لدقائق معدودات، وعادت تحمل بين يديها أدوات شرب المتة، فبدأت جلستهم الصباحية، حينما قالت عفاف متوجهة إلى كوثر:

-تناهي إلي أنك قد رُزقت بطفل من سمير الآغا أليس كذلك؟

ردت كوثر بحياء أنثوي بديع:

- هذا صحيح، فقد تزوجت من سمير الآغا منذ عام 2010، زواجاً مدنياً، بعيداً عن معرفة أهلي، ورزقت منه بابني رشيد، الذي صار في عامه الرابع الآن، إنَّه في الداخل يجهز نفسه، وسأقدمه اليكم بعد قليل.

وما هي سوى لحظات حتى دلف الطفل رشيد إلى مجلسهم، فتفرست عفاف في وجه الصغير، لتلاحظ الشبه الكبير بينه وبين والده، فرأت ذات العينين العسليتين والوجه الحنطي، والابتسامة الخلابة، فأخذته في حجرها، وضمته إلى صدرها، وقبلت خديه وجبينه بابتهاج عارم.

وبعدما سلَّم، على ضياء، غادرهم رشيد، إلى ألعابه ولهوه، فيما التفتت عفاف إلى كوثر تسألها:

-ولكن أين هو سمير الآن؟ تناهى إلي أنه قد سافر، فأي وجهة قصد؟

أجابتها كوثر:

- لقد سبق أن سافرنا معاً إلى أمريكا إثر اندلاع الحرب الأهلية في البلد، مع بدايات عام 2011، وقد بقي هناك ينتظر عودتي إليه.

أراد ضياء تغيير مجرى الحديث، فقال:

-بالرغم من عدم معرفتي بالسيد سمير، أعتقد أنَّ من حقه أن يُقدم على ما أقدم عليه، فهذه الحرب الإجرامية، التي تفتقر إلى الجدوى، جعلت الناس يفرون منها على غير هدى.

وبعدما ارتشف رشفة من كأس المتة، تابع يقول:

-على وجه العموم، غيبت هذه الحرب كثيرين ممن كنا نكن لهم المودة والحبَّ، والذي يحز في نفسي، أكثر من أي شيء آخر، هو اختفاء الأستاذ علي الراعي الذي كان يلقب نفسه باسم المواطن رقم 13، وأتذكر أنني قد تعاهدت وإياه، أن نعيش معاً لألف عام. ولكن هذه الحرب الملعونة خيبت ظنِّي.

نزلت دمعة من عين عفاف، فدارتها بمسحهما بظاهر كفها.

أما كوثر الأسمر، فقد قطبت حاجبيها، وهي تخاطب ضياء قائلة:

- ستلتقيه عاجلا أم آجلا، حتى الموت لن يفرق بينكما، لأنه ببساطة لا وجود للموت سوى في ظاهر الأمر، أما في العمق فهو مجرد انتقال لطاقتنا العقلية برفقة جسدنا الأثيري، من هذا الكون، إلى كون آخر، في الوقت ذاته الذي يعود فيه جسدنا المادي، إلى حضن الطبيعة من جديد، ذلك ما يؤكده يو.إم. إيفانوف[8] في كتابه بعنوان "الإنسان والروح" حيث يقول: "لا تعرف الطبيعة الموت، وحتى الموت هو مجرد تغيير للشكل والصيغة في مادة الجسم".

وظاهرة التراكب الكمي أوحت بذلك، وهي ظاهرة تقع في صلب علم ميكانيكا الكم.

كان ضياء ملماً، إلى حدٍ بعيد، بما قالته كوثر عن ظاهرة التراكب الكمي، وعالم الروح، ولكنه في محاولةٍ للاستزادة، من متخصصة في علوم الفيزياء الحديثة، تساءل قائلاً:

- ما الذي تعنيه بظاهرة التراكب الكمي؟

كانت كوثر قد فرغت لتوها من تقديم أطباق الكيك بالشوكولاتة، مع أكواب من القهوة، لضيفيها، مُصغية في الوقت ذاته إلى تساؤلات ضياء فأجابته قائلة:

-ظاهرة التراكب الكمي هي بالتعريف (قدرة النظام الكمومي على أن يكون في حالات مُتعددة، في الوقت ذاته، حتى لحظة القياس) سأبسط الموضوع فلتصغ إلي جيداً:

إنَّ الإلكترون، أو أي جسيم دون ذري، إذا كان خارج دائرة مراقبتنا، يتصرف كموجة، كما أمواج البحر مثلاً، ولكنَّه حالما يخضع لمراقبتنا تنهار حالته الموجية، ويتحول إلى مجرد جسيم مادي.

على سبيل المثال:

إذا كانت لدينا غرفة مكونة من أربعة جدران، وفي كلِّ جدار باب، فالإلكترون داخل الغرفة، إذا كان غير خاضع لمُراقبتنا، سنتوقع وجوده عند الأبواب الأربعة، في الوقت ذاته، ولكن ما أن نرصده عند أحد الأبواب، ليكن الباب الغربي مثلاً، حتى يختفي فجأة من أمام الأبواب الثلاث الأخرى.

فرصد الإلكترون قد تسبب في انهياره كموجة من الاحتمالات، وتجسده بحالة واحدة كجسيم مادي.

والسؤال هو: أين اختفى الإلكترون من أمام الأبواب الثلاث الأخرى؟

أجاب العالم الأمريكي "هيو افريت" بأن تنبأ أنَّ الإلكترون كموجة لم ينهار، إنما انشق كوننا إلى عدد من الأكوان الموازية، بعدد الاحتمالات، التي كانت موجودة، قبل عملية الرَّصد، فبقي أمامنا الكون الذي تحقق فيه رصد الإلكترون، عند الباب الغربي (في مثالنا)، بينما تحقق في الأكوان الموازية، التي لا يمكننا أن نراها، وجود الإلكترون عند كلٍّ من الأبواب الثلاثة الأخرى. وثمة آراء تقول إنّ هنالك نسخاً من كل منا، ومن كل شيء موجود في كوننا هذا، في كل من الأكوان الموازية، فقد تكون صيدلانيا في كوننا

بينما في كون آخر قد تكون طبيبا، أو مهندسا، أو رئيسا لبلد ما، وهكذا.

وبعدما ارتشفت القهوة تابعت كوثر تقول:

- الأصل في اكتشاف مبدأ التراكب الكمي هو تجربة الشق المزدوج التي أجراها العالم كلاوس جونسون في عام 1961م. بإطلاق حزمة من الإلكترونات باتجاه حاجز صلب فيه شقان شاقوليان متوازيان، وخلف الحاجز وضع شاشة حساسة لتلقي النتائج، فوجد أن الإلكترونات قد تركت على الشاشة الحساسة شرائط عديدة متجاورة ومتوازية، بعضها مضيئة، وأخرى معتمة، على التوالي، أي أن الإلكترونات قد سلكت سلوك الموجات لدى عبور الشّقين المتوازيين، وكل موجة انفصلت إلى اثنتين، فالتقاء ذرى الموجات المتقاطعة أعطى شريط إضاءة قوية، بينما التقاء ذروة موجة مع قاع موجة أخرى أدى لفنائهما معاً فأعطيا شريطاً معتما.

وحينما وُضعَ جهازٌ لمراقبة الإلكترونات لدى عبورها الشقين المتوازيين، تحولت الإلكترونات، إلى مجرد جسيمات ماديَّة، فتكون على الشاشة خلف الحاجز خطان متوازيان فقط، أي كما لو

أننا قد أطلقنا كرات مادية صغيرة عبر الشقين المتوازيين.

فالإلكترونات تصرفت كجسيمات لدى إخضاعها للمراقبة، وكموجات في حالة عدم مراقبتها، وتم الحصول على النتيجة ذاتها، سواء وضعنا جهاز المراقبة أمام الحاجز ذا الشقين أو خلفه، مما حير العلماء وجعلهم يلجئون إلى تجربة حاسمة للكشف عن حقيقة سلوك الإلكترون.

ارتشفت الدكتورة كوثر القهوة من كوبها، ثم تابعت تقول:

- قد يبدو الحديث مُطولاً، ولكن نتائجه الفلسفية شيقة جداً، فحتى يتأكد العلماء من نتيجة تجربة الشق المزدوج على نحو لا يداخله الشك، أرسلوا من منبع ليزري شعاعاً من الإلكترونات إلى كريستالة قسمت الشعاع إلى شعاعين أحدهما، شعاع أيمن، والآخر شعاع أيسر، فوضع العلماء أمام كل شعاع حاجزاً ذا شقين شاقوليين متوازيين، وخلف كل حاجز لوح حساس، ولكنَّهم قاموا بعرقلة وصول الشعاع الأيسر لأجزاء من الثانية، بتمريره عبر أنبوب حلزوني طوله عشرة كيلومترات، ولم تتم مراقبة الشعاع الأيمن، وكان متوقعاً أن يظهر أثره على اللوح الحساس على شكل موجة، وهذا الأمر قد بات مألوفاً.

بينما تمت مراقبة الشُعاع الأيسر، قبيل لحظة وصوله إلى اللَّوح الحساس، فتحول من موجة إلى جسيم، كما أظهر أثره على اللوح الحساس.

وكانت المفاجأة المُذهلة أنَّ العلماء عندما تفحصوا نتيجة الشعاع الأيمن، الذي لم تتم مراقبته، وجدوا أثره على اللوح الحساس، قد ظهر كجسيم أيضا، وهذا يعني أن الشعاع الأيسر، قد عاد بالزمن إلى الوراء، إلى لحظة الانطلاق من المنبع، ليُعلمَ رفيقه الأيمن أن انتبه ثمة من يراقبنا، اظهر كجسيم، وليس كموجة.

ابتسمت كوثر الأسمر لمعالم الدهشة التي بدت على وجه عفاف، ثمَّ أضافت وهي تشعر بمتعة الفلسفة:

- هذا يدل على أنَّه لا وجود لسريان الزَّمن، في العالم الصغري، على النحو الذي نعرفه في عالمنا. ففي العالم الصغري، الماضي والحاضر والمستقبل، يتواجدون معاً، في الوقت ذاته، وإن ذلك لأمر مُذهلٌ حقاً.

تابعت كوثر ارتشاف قهوتها بتلذذ، وأكملت تقول:

- نستخلص من ظاهرة التراكب الكمي، أن هذا الواقع الذي نعرفه، هو من صُنع وعينا، أي نحن الذين نخلق هذا العالم، على النحو الذي نراه فيه، فمن بين كل الاحتمالات المتراكبة الممكنة، في

الطبيعة، تتجسد لوعينا، في لحظة المراقبة، حالة واحدة، بينما تختفي بقية الحالات في أكوان موازية أخرى.

بمعنىً آخر فإن وعينا هو الذي يخلق واقعنا الذي نعرفه في هذا الكون الذي نعيش فيه.

ارتشف ضياء القهوة، وقال معقبا على ما قالته الدكتورة كوثر:

- الاستنتاج الذي تقولين به يدعم مذهب وحدة الوجود، حيث لا وجود حقيقي، لهذا الواقع الذي نراه، إلا بوجود المراقب الواعي، ولولا وعي الخالق لما تجسدت المخلوقات.

والله هو الوجود الحق، وما المظاهر المادية سوى إعلان عن وجوده، دون أن يكون لها وجود قائم بذاته، وهذا أيضا ما عبّرت عنه الحكمة التاوية ببساطة حينما قالت: "المخلوقات من الخلاق كالثلج من الماء، فالثلج هو أحد تجليات الماء".

قالت عفاف التي كانت مندهشة بحديث يسير على هذا النحو من الغرابة:

-ما أتيتم عليه ربما لا يتعدى الوهم، أو الانطباعات التي تبعثها فينا حواسنا، التي عانت

من اعتلال مؤقت، حين إجراء تلك التجارب الدقيقة، والحساسة.

ردت كوثر وهي تبتسم:

-كلا يا عزيزتي عفاف، فالتجارب العلميَّة، تدعم نتائجها الفعليَّة ما نقول به، وما نحن، بالنسبة للحقيقة، سوى سيمفونيَّة كونية تعزفها الطبيعة على أوتار فائقة الدقة من الطاقة الصافية، التي ربما تصدر عن العقل الكلي للإله.

وتابعت كوثر التي كانت قد قدمت لضيوفها أطباقاً من الكنافة:

-إن علم ميكانيكا الكم الحديث مستمر في إماطة اللثام عن حقائق هذا الوجود، فثمَّة فرضية علمية تدعى فرضية الوعي الكمي، تبين أن أدمغتنا ليست سوى مستقبلات للوعي الكوني، كما تستقبل أجهزة الراديو البث من محطة البث المركزية، وإنَّ الوعي الحقيقي ليس سوى كرة وهمية من الطاقة والمعرفة والذكاء، تقع خارج حدود عالمنا ثلاثي الأبعاد، وتتواصل مع أدمغتنا آنياً عبر ظاهرة "التشابك الكمي"، ولهذا السبب فحينما يموت دماغنا لن يتأثر الوعي الكلي بذلك، وهذا يؤكد مجدداً فكرة خلود الوعي الإنساني.

قالت عفاف:

- كلّ شيء مُمكن إذن، وربما تلك الفرضية عن الوعي الكمي صحيحة، ومع ذلك ما زلت على قناعة بأن هذه الحياة كما أعرفها، وأحسها، تستحق أن أعيشها، دون أن أُشغل عقلي بمثل تلك الفرضيات المُغرقة في الخيال، لأنَّها في واقعنا الحقيقي الذي نعيشه، لا تعني شيئاً ذا بال.

عقبت كوثر على حديث عفاف بقولها:

- بالتأكيد يمكننا أن نعيش كما نشاء، وهذا بالطبع لا يتعارض مع أن نتابع أحدث تطورات العلوم، فالمعرفة طاقة خلاقة، ويمكنها أن تجعلنا نشعر بأننا نساهم، على نحو أو أخر، بما يجري في هذا الكون، الذي، بوعينا نحن، أصبحنا من الفاعلين الأساسيين في وجوده.

أمَّن ضياء على كلام الدكتورة كوثر بانحناءة من رأسه، بينما راحت عفاف تؤكد من جديد على أنها لو كان وجودها مجرد سراب، ستحياه بسعادة غامرة.

وبعدما تناولوا الغداء سوياً غادر ضياء وعفاف مزرعة رشيد الأسمر، وهم في غاية الغبطة والمتعة والسرور.

(15)

مع حلول عام 2015، بلغ الصراع المُسلح أشده، بين الفصائل الإسلامية، والحكومة السورية، وتدخلت فيه القوى الدولية والإقليميَّة الوازنة، على نحو مباشر، سواء من خلال تشكيل تحالف دولي بقيادة أميركا لمحاربة تنظيم الدولة الإسلاميَّة، بالتعاون مع قوات سورية الديمقراطية، أم من ناحية التدخل الروسي المباشر في الشمال والجنوب السوري. فامتدت رقعة القتال، لتشمل معظم مساحة الأراضي السورية.

كان ضياء سعيد قد بلغ حينها، عامه الخمسين، وراح، على نحو نقدي، يراجع تجربته الحياتية، فكتب في مذكرته يقول:

> ما عدت أجد ضيراً بأن أهزأ بكل طموحات مُقتبل العُمر، تلك الشعارات الفارغة، التي سرنا خلفها، نحن المُغرر بنا من المُثقفين، بينما الفاشلين الذين تسربوا من المدارس باكراً، لاذوا بالدِّين، حافين شواربهم، مطلقين لحاهم، مقصرين ثيابهم، على نمط مُسلم الدولة العباسيَّة، فتمكنوا من استغباء كبار المُتعلمين، من الأطباء والمهندسين وحملة الشهادات العُليا، الذين راحوا يأتمون بهم، كما القطيع، في كل صلاة للجماعة، ويستمعون بخشوع إلى خطبهم الغبيَّة الحاقدة.

كلّ الإيديولوجيات، بما فيها الدين الرَّسمي المُتوارث، ليست سوى سراب خادع، تاجر بها وبنا الساسة، ومن يسمون رجال دين وفقهاء، لإحراز الثراء والجاه، عبر أسهل السبل، وأقصرها.

حتى قادة الأحزاب التي ادَّعت الأممية، برغم هذه الحرب الكارثيَّة، يعيشون في بحبوحة من نعيم دنياهم، وقد نبتت لهم بطوناً بيضوية منفرة، راحت تتقدمهم في الولائم، ولا زالوا يمارسون تنظيرهم المُخادع على الرِّفاق، لشد الأحزمة على البطون، في سبيل المضي قدماً، حسب زعمهم، في محاربة الاستعمار والإمبريالية.

تبقعات حزبية عديمة الأهميَّة، جعلت الناس يتوهمون وجود حياة سياسية في البلاد، بينما في الواقع لم يزل الخليفة ذاته يحكمنا، منذ أكثر من الف عام، بالسَّيف والنطع، ورشى المال الحرام.

خلافا لأيِّ تفكير أرضي، يدَّعي أنَّه مُتسق، أقر بأن الحياة ليست عادلة، وبالتأكيد كانت دائماً كذلك، وستظل غير عادلةٍ حتى قيام الساعة.

ضياء سعيد

الأربعاء في 27 أيلول لعام 2015.

(16)

نسبياً تلاشت حدة الحرب السوريَّة في عام 2024، ولكنَّ الجمر، كان، ولم يزل، متقداً تحت الرّماد، فالمناوشات على مختلف الجبهات، ما زالت مستمرة، ومن حين لآخر تختلف مواقف الدول العظمى من الأزمة السورية، وتتبدل طبقا لتبدل موازين القوى على الساحة الدولية، والإقليمية.

وباتت سورية شبه مُقسمة، غارقة في نفق احتمالات لا يمكن التنبؤ بنتائجها، فالأطراف التي أنهكها الصراع المُسلح، ظلت على تعنتها، بعيدة عن النُضج السياسي، الذي يمكن أن يدفعها للبحث عن حلول سياسيَّة توافقيَّة ممكنة، للأزمة السوريّة، التي استمرت لأكثر من أربعة عشر عاماً، ولم تزل.

والأحقاد المُتبادلة، باتت صدى لتباين مصالح الدُّول الإقليميَّة، والدوليَّة، التي ما زالت تدعم الأفكار المُتطرفة لطرفي النزاع، بهدف الاستمرار في تفتيت البلاد وإنهاكها حتى الرمق الأخير، وبدا كلّ من طرفي النزاع، على الساحة السورية، كالمخمور، يبحث عبثاً عن انتصار حاسم، على خصمه، فلا يمكنه تحقيقه، وبات الاغتراب هو الحالة المثالية المرهقة للمواطن السوري، حيثما وجد.

لم يكن ضياء سعيد بمنأى عن حالة الاغتراب التي بات يعيشها المواطن السوري، ولأنَّه في العاشر من شهر حزيران لعام 2024 سيبلغ عامه التاسع والخمسون، كتب في مذكرته يقول:

ما عاد جاه أو مال يستأثر باهتمامي، إلا ما يستر الحال، أحسبني لا واهماً ولا مُغتراً، مُتصالحاً معي ومع النَّاس، أمضي إلى حيث ترغب الحياة أن أكون، فما عاد يعنيني سوى التأمل، والحبّ الأسمى.

سنواتي الكثيرة تركتها خلفي، غير مُكترث بها، ولا آبهاً بالرّحيل.

سئمت الشعارات، والمشاريع الكبيرة، فتركت للوطنيين أن يتغنوا بأوطانهم، وللقوميين أن يتغنوا بأقوامهم، وللمتدينين أن يتغنوا بأديانهم.

منصرفاً عن كلِّ حروبهم البينية، إلى بقعة داخل قلبي أتنفس من خلالها الضوء، الكون، الطبيعة، والجمال. فاهتدي إلى خالق لا يفارقني، لا يغافلني، ولا يتربص بي الدوائر.

ضياء سعيد

في 9 حزيران لعام 2024.

وكما في أعوامهِ العَشر الأخيرة، كان ضياء سعيد يحتفل بعيدِ ميلادهِ وحيداً، إلا من صديقتهِ عفاف الراعي، فهو منذ أن اختار العاصمة دمشق مكاناً لسكنهِ، ودَّع كلَّ المنغِّصات الَّتي كانت تؤرقه خلال خمسين عاماً، فأيقن، إثر ذلك، أن ما من قرار يتخذهُ المرءُ بشأنِ مصيره إلَّا ويترتب عليه ثمناً باهظاً عليه أن يوطِّنَ النَّفس على دفعه قانعاً راضياً.

ومنذ قدومه إلى العاصمة دمشق أشترى شقته الواقعة في الدَّور الأول من بناء طابقي، يقع في منطقةِ المرجة، فكانت شقة متواضعة مؤلفة من غرفتين وحمَّام، إضافة إلى مطبخ صغير.

وقد خصص إحدى الغرفتين للنوم، فوضع في صدرها سريراً عريضاً، والى جواره طاولة للكتابة، يغطيها مخمل سميك أخضر اللون، يتدلى على حوافها الأربع، وخلفها كرسي أنيق مكسو بمخمل أحمر، بينما خصص الغرفة الأخرى للمعيشة، فخصَّها بثلاثة أزواجٍ من الأرائك، تفصل بينها طربيزات من خشب السُّويد، وضعت في صدرِ الغرفة، وعلى الجدارين المتقابلين، بينما وسط الغرفة كانت تشغله طاولة مستطيلة، وإلى كلٍّ من جانبيها كرسيان متجاوران من خشب الزان المكسو بالإسفنج الوثير، الذي يغطيه قماش متين من الكتان.

وبالرُّغم من تقدمهِ في العمرِ بدا ضياء بقامته الضامرة الممشوقة، وابتسامته المشرقة الهادئة، نشيطاً مرحاً، حتَّى يكاد من يراه يعتقد أنَّه لم يتجاوزْ الخمسين من عمرهِ.

وفي ذكرى يوم ميلادهِ مضى باكراً إلى سوقِ سَاروجا، فابتاعَ كيساً من الخُضارِ، وآخر من الفواكهِ، وكيساً من الموالحِ، ومقداراً من لحم الضأني، ثمَّ عرَّجَ على خمارة، مجاورة لمكانِ سكنهِ، يملكها صديقهِ إبراهيم الباشا، فابتاع زجاجة كبيرة من الويسكي الفاخر، وزجاجة مماثلة من عصيرِ البرتقال الطازج، واستعان بالصَّبي، الذي يعمل في الخمارة، لرفع مشترياته إلى شقته.

وفي المساء جهزَّ وصديقته عفاف الراعي الأطباق الشَّهية، ثمَّ تناول من ثلاجته زجاجة الويسكي وعصير البرتقال، وبعد أن وضعَ مُكعباتَ الثَّلج في قدحينِ أنيقين من البلَّور، سكب فيهما الويسكي، ثمَّ أكمل ملء الكأسين بعصير البرتقال، وراح وصديقته عفاف يتبادلان الأنخاب في جوٍ من الألفةِ والمودة، حتى إذا ألمَّ بهما الثَّمل قليلاً، توجهت إليه عفاف الَّتي جلست إلى جوارهِ، تسألهُ:

- وأنت على أعتابِ عامكَ الستين، كيف تشعر بمرور كلّ تلك السنوات التي انقضت؟

أسند ضياء مرفقيه إلى ركبتيه بينما اسند قدميه إلى العارضة الأفقية في أسفل كرسيّه وقال:

- لا شيء يؤرقُ المرءَ سوى أن يكون قد ارتهن للأسرِ في زمنٍ ما، فأن نحيا أحراراً متناغمين مع روحِ هذه الطبيعة، تلك هي النعمة الحقيقيَّة، الّتي يُمكن التعويل عليها، حتَّى إذا بَلغَنا الأجل، غادرنا هذا العالم مُبتهجين، دونما حَسرةٍ أو نَدم.

ولقد أدركت، وإن كان ذلك متأخراً، أن الحياة، في هذا العالم، توهب لنا مرة واحدة، وعلينا أن نحياها بما يليق بمثلِ هذهِ الهبة العظيمة، ومنذ تلك اللَّحظة بت أحسب أنَّ الزَّمن قد توقف عن جريانهِ المُعتاد.

نظرت اليه عفاف نظرة تأمليَّة، ثم قالت:

- ولكنكَ وقد أمضيت أكثر من خمسين عاماً في الأسرِ، كما تقول، فهل كانت سنواتك العشر الأخيرة كافيَّة لتعويضكَ عن كلِّ ذلك؟

ابتسم ضياء ابتسامة تنم عن سعادة غامرة، وتناول جرعة من الويسكي ثم أجاب:

- بالتأكيد، وقد تمكنتُ من تجاوز ذلك الماضي حتَّى بدا وكأنَّه لم يعد يعنيني، وكما الكثيرين، لم يكن بمقدوري تلمس سبيلي، إلى الحقيقةِ

الجوهريَّةِ للوجود، دونما طريق طويل من العَثراتِ والضَلالات، إلى أن تمكنت من عتق روحي من كلِّ شوائبها، فولدت نقياً من جديد، بينما تلاشى ذلك الماضي كما يتلاشى العتم مع بزوغ خيوط الفجر.

قالت عفاف التي أخذت لتوها جرعة من الويسكي، وعلائم الدهشة تبدو على محياها:

- ولكن ألا ترى أنَّك تبالغ إذ تعتقد أنَّ ماضيك كان كلَّه مُعتماً؟

تنهد ضياء، وبدا عليه، أنَّه كمن فكرَّ طويلاً، من قبل، في الإجابة على سؤال كهذا، وقال:

- بيدك حق، ربما لم يكن كلَّه كذلك، ولكن ثمَّة لحظة فارقة في حياة كلٍّ منَّا، اذا تمكن من اغتنامها، يصير ماضيه كلَّه مجرد منصةً للوثوبِ، إلى مرتبةٍ أعلى من الوجودِ، حيث كلُّ الاحتمالات، بما فيها الضَّياع الكامل، مُمكنةً، وما عليك سوى التمتع بالجرأة في لحظة فارقة كهذه، فعند تلك المرتبة من الطَّاقة القصوى للوعي، يكمن النَّعيم الحقيقي، وتتكشف لك الحقيقة، إذ بتحرركِ فجأةً من كلِّ القيود الزائفة التي تربطكِ بعالمكِ المُعتاد، تبدين وكأنك تلقين بنفسك إلى الجانب الآخر من هوةٍ سحيقة، يملؤها الفراغ

المُرعب، وحينها فقط تصبحين بغيرِ حدود، وبلا قيود، وجهاً لوجه أمام جوهركِ المُضيء الفريد، مع حقيقتك الأصلية، كشُعاع من الضَّوء، بينما يصير ماضيكِ المُعتم السَّاكن مجرد ذرةٍ رملٍ، ذرة رمل فقط، تتلاشى في خضَّمِ محيطٍ واسعٍ من الخياراتِ اللانهائية، التي يمكنكِ أن تصيري إليها.

وتلك هي الحريَّة في أقصى درجاتها، ذلك هو النعيم الحقيقي، الحرية المطلقة في مواجهة الفناء.

نظرت عفاف إليه، وكمن يعتريها الذُّهول قالت:

- لعلك تحدثني عن الاستنارة، وهي مهيأة للبعض ممن كابدوا المشقات بجلدٍ في سبيل بلوغها، كما فعل سدهارتا جوتاما بوذا، ومثل هذا قد يحصل مرة واحدة كل مئة عام، أو ربما أكثر، فهل توافق على رأي كهذا؟

تأمل ضياء ملياً في عيني عفاف الجميلتين الناعستين، وبعدما ازدرد جرعة من الويسكي، أجابها قائلاً:

- ربما كانت استنارة بوذا كذلك، مرتبة قصوى من وعي الوجود، ولكن ما أعنيه شأناً آخر، يختلف عن الزهد والتقشف في الحياة، أو الرغبة

في التنسك والرهبنة، وإبداء المواعظ، وأنا، كما بت تعلمين، بعيد عن ذلك كل البُعد.

ما أعنيه هو أن ننظر إلى كل ما يحيط بنا، على هذه الأرض، نظرة نسرٍ من عليائه، فتبدو لنا الأشياء التي تعلقنا بها مجرد ذرات من الوهم الفارغ، وهذا بالطبع أمر مُختلف جذرياً، عن أن نظلّ على هذه البسيطة، مهمشين، وسط محيط واسع من القطيع.

إذ حينما نترفع عن الصغائر، سنجد كلّ الفرص المواتية للتشبع بالحياة والحبِّ، سنجد في ذاتنا الكثير الذي يستحق أن نحيا من أجلِّه عمراً مضاعفاً، سنجد نور الإله متجسداً في ذاتنا، وذلك في اعتقادي أمر ممكن لكلِّ من يسعى إليه جاهداً بإخلاص.

فحينما تتيحين لوعيك، هذا الوعي ذو المنشأ العُلوي، أن يضيء كلّ النقاط المُعتمة في شبكة عقلكِ الباطن، يمكنكِ حينها أن تبلغي مرتبة، لا تفصلك خلالها، عن الوعي الكلي للكون، أية حواجز.

حالة كهذه تقودك إلى الانعتاق من كلِّ القيود الزائفة، الَّتي فرضها الوجود الاجتماعي، عبر تاريخ طويل من الحسد والغيرة والكراهية

والكبت والحقد، والحروب العبثيَّة، وشتى ضروب القيود، التي فرضتها الدِّيانات الرَّسميَّة المُحرَّفة الزَّائفة، والإيديولوجيات المُعلَّبة الفاسدة.

أعتقد أنَّ في ذلك درجة عُليا من درجات الاتحاد مع الطبيعة، ومعانقة الإله، والتعود عليه، كما هو في الحقيقة، نور وحب وصفاء، وليس كما صورته التخرصات العاجزة المُملة لكهنة الدين الرَّسمي على أنَّه جزَّار سادي يتربص بمخلوقاتهِ الدوائر، ويتعطش إلى سفك دمائهم بلا رحمة، ولا شفقة.

ودون أن تخفي ابتهاجها قالت عفاف:

- أوافقك الرأي، ولكن ألا تعتقد أنَّ النّاس العاديين، الَّذين يشكلون الغالبية من البشر، ما زالوا بأمسّ الحاجة إلى هداية الدين الرَّسمي الذي تنبذه أنت بمثل هذه السهولة؟

نظر ضياء مطولاً في عيني عفاف ثمَّ أجابها قائلاً:

- نعم الدين إذا كان حقيقياً، لم يلحق به التزييف الناجم عن غرور وطمع الكهنة المُتنفذين، قد يُصلح من شأن العامة، ولكن من الضروري عقلنة الدِّين الرَّسمي، ليصبح مُطابقاً للحقيقة، بما يجعله يخدم البشر على نحو أكثر نبلاً، لا أن يستعبدهم.

حينها فقط يمكن القول بحاجة الناس العاديين إلى مثل هذا الدين ليهذب نفوسهم.

أما أن يفرض أحد المُغفلين الفاشلين عليك مشيئته، على أنها دين عليك اعتناقه، إذا شئت خلاصاً، أو جنة عرضها عرض السماوات والأرض، حينها سأتخلى عن ذلك الخلاص، وعن تلك الجنة الموعودة، إذا كان ثمنها إذعاناً رخيصاً كهذا، ولسان حالي يقول: فلتذهب وربك إلى الجحيم، لقد قررت أن أحيا كما أشاء.

قال بذلك المتنورون، عبر كلّ العصور، كالفارابي الذي أشار إلى أنَّ: " الشريعة تصلح ديناً للعامة من الناس، أما الحكمة فهي دين الخاصة منهم".

كما نوه إلى ذلك أخوان الصفاء وخلان الوفاء في رسائلهم حين قالوا: "فأما من يعرف الله حق معرفته، فلا يتوسل إليه بأحد غيره، وهذه مرتبة أهل المعارف، الذين هم أولياء الله.

وأمَّا من قصر فهمه ومعرفته وحقيقته، فليس له طريق إلى الله تعالى إلَّا بأنبيائه ...".

وكما أظنك تلاحظين، فثمَّة درجات من الوعي، حتى إذا بلغنا، كمال المعرفة الحقيقية، صرنا إلى طبيعة الله أقرب.

كان الكرى قد بدأ يتسلل إلى جفنيه، وبات حبُّ المُغامرة يبعث في روحه جرأة لا حدود لها، ليروي ظمأً قد عاشه، حسب اعتقاده، دهراً، بانتظار لحظة كهذه، فاختطف قبلة من شفتي عفاف، فلم تمانعه في ذلك، ولأول مرة، منذ عشر سنوات، راح بهدوء ناسك يتعبد خالقه، يجردها من ثيابها قطعة، قطعة، دون أية مقاومة منها، إذ بدت طائعة راضية، وهي تنظر في عينيه، وعلى ثغرها ارتسمت ابتسامة شهية غامضة، ثم تخلص بدوره من ثيابه، ودون أن ينبسا ببنت شفة، احتضنها عارية بين ذراعيه القويتين، ومضى بها، واثقاً هادئاً إلى سريره، فاستسلما إلى رقاد لذيذ.

ولأول مرة شعرا بأنهما قد باشرا صلوات للحبٍّ كونيّة عارمة، لا نظير لها.

فبات يتنفس من نهديها عبير الوجود، بينما هي تضم، بحنان وحبٍّ عارمين، رأسه الثمل إلى صدرها النّاهد، وتتنهد سعادة غامرة.

فبدا المشهد وكأن الكون، كلَّه، قد صار بعضاً من صلاتهما الصُّوفيَّة، وكما لو أنَّ الحياة النقيَّة، لتوها، قد بدأت على هذه الأرض.

تمت ... أيلول عام 2024م.

مُفرداتٌ وأعلام

رواية الأبله[1]ص5: رواية للكاتب الروسي الشهير فيدور دستويفسكي ترجمة الراحل الدكتور. سامي الدروبي.

كرونيكر[2] ص32:ليوبيد كرونيكر، عالم رياضيات ألماني (1823-1891) اشتهر كرائد في ميدان الأعداد الجبريّة، وفي وضع قواعد للعلاقة بين نظريَّة الأعداد ونظريَّة المعادلات والداول الإهليلجيّة.

الكوارك [3] ص32: هو أصغر جسيم أولي في الذرة، ويسهم قي تكوين مكونات نواتها.

التشيلو[4]ص33: آلة موسيقية وترية تشبه الكمان.

"بريان غرين"[5] ص34: بريان غرين هو فيزيائي أمريكي معروف، عالم رياضيات، وعالم في نظرية الأوتار الفائقة، يعمل في مختبر سيرن، وله العديد من المؤلفات العلمية منها كتاب الكون الأنيق.

(مصادم الهيدرونات الكبير)[6] ص35: هو أضخم مسرع للجسيمات، وأعلاها طاقة، وجزء من مشروع تديره المنظمة الأوربيَّة للأبحاث النووية ويعرف اختصاراً بـ: سيرن. ويقع على الحدود الفرنسيّة السويسرية.

سيكوباتي[7] ص78: مصطلح مرض نفسي، لوصف شخص قاسٍ، وغير عاطفي، ومنحرف أخلاقياً.

يو.إم.إيفانوف[8] ص173: مؤلف كتاب الإنسان والروح.